الحكماء الثلاثة

أحمد الشتناوي

الكتاب: الحكماء الثلاثة

الكاتب: أحمد الشتناوي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الشتناوي، أحمد

الحكماء الثلاثة / أحمد الشتناوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٤ – ٧٢١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٨٠٤٧ / ٢٠٢٣

الحكماء الثلاثة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

في الشرق ملايين من الأنفس تدين بمذاهب دينية غريبة لا تمت بصلة إلى الأديان السماوية المعروفة، ففي الصين عشرات الملايين من البشر يدينون بتعاليم كونفشيوس حكيم الصين الفذّ. وهم يرتبون حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية على أساس هذه التعاليم التي يقدسونها غاية التقديس.

والبوذيون في الهند، وهم غالبية السكان هناك، يعتقدون في بوذا وتعاليمه ولا يحيدون عنها قد أنملة على الرغم من انتشار الإسلام والمسيحية بين ربوعهم.

ولا يزال هناك إلى اليوم مئات الألوف من الأنفس تدين بالمجوسية وهم أتباع زرادشت الذي ظهر بفارس في القرن السادس قبل الميلاد.

وقد رأيت أن أجمع بين دفتي هذا الكتيب خلاصةً وافيةً لحياة هؤلاء الحكماء الثلاثة مع عرض عام مختصر لأهم المباديء والتعاليم التي نادوا بها والتي جذبت إليها هذا العدد الكبير من بني البشر.

وإني لأشعر بأن هذا الموضوع الخطير أجَلّ وأعظم من أن تشمله وتحيط به مثل هذه الرسالة الصغيرة، غير أني أرجو أن يكون ذلك باعثًا لغيري على بذل الجهد؛ لإيفاء هذه المذاهب والتعاليم حقها من البحث والدراسة، لما كان لها من أثر بالغ في الديانات السماوية التي ظهرت بعد ذلك.

المؤلف

زرادشت

لا يدين اليوم بالديانة الزرادشتية إلا طائفة المجوس بالهند وجماعة قليلة العدد من أهل فارس، ومع ذلك فإنها تستأهل الدراسة لما كان لها من أثر بالغ في الديانات السماوية التي جاءت بعدها. فزرادشت صاحب هذه الديانة هو أول من قال ببعض العقائد الجديدة التي تضمنتها الأديان السماوية فيما بعد مثل القول بالجنة والنار والبعث ويوم الحساب، وأن الشيطان هو أصل الشر في العالم. ولقد كان لهذه الفكرة الأخيرة شأن هام في تطور الأديان. وإنه ليصعب علينا الآن أن نتخيل الوقت الذي كان الإنسان فيه لا يدرك شيئًا عن هذه الفكرة، فكانت تنتابه الحيرة عندما ينظر إلى هذه الشريرة والآلام التي تحيط به ولا يدري لها تعليلًا. فهو لا يستطيع ردها إلى فعل الإنسان ذاته لأنها فوق طاقته، وليست هي من صنع الآلهة؛ لأن الآلهة خير محض فلا يصدر عنها إلا الخير؛ لذلك كان لهذا الرأي أو الكشف الجديد الذي جاء به زرادشت أثره البالغ في إخراج الإنسان من حيرته التي كان فيها، إذ جعله يدرك كنه الشر وطبيعته فأخذ يسعى للقضاء عليه أو الابتعاد عنه قدر الطاقة، ثم هو في الوقت نفسه يصل لعنته على الشيطان إذا ما أصابه الضر فترتاح نفسه ويجد لحنقه وغيظه منصرَفًا.

وإنه على الرغم من الخرافات التي حكيت حول فكرة الشيطان، فمما لا شك فيه أنه بقدر حنق الإنسان وسخطه على الشيطان مصدر

الشر والألم، يكون حبه وإجلاله لله مصدر الخير والبركات، فالشيء كما يقولون لا تعرف قيمته إلا بضده.

والخطر الوحيد الذي قد ينجم عن هذه العقيدة هو أن بعض الناس قد يخشون الشيطان أكثر مما يجب فيعبدونه زلفى له كما يعبدون الله سبحانه وتعالى.

على أن زرادشت لم يعبد الشيطان (أهرمن) قط، بل كان يمقته ويعمل على محاربته. والأمر الذي أنقذ زرادشت من الوقوع في ثنائية الاعتقادُ في إلهين: إله الحق والنور وإله الشر والظلمة، وجعله من القائلين بالتوحيد الداعين إليه، هو اعتقاده الجازم في أن أهرمن إله الشر سوف تحل به الهزيمة هو وأعوانه من خلائق الشر آخر الأمر على أيدي أهرمزدا الإله الحق هو وأعوانه من ملائكة النور.

ولقد كان لاعتقاد زرداشت الجازم في انتصار الحق والخير آخر الأمر على الشر أثره البالغ في التفكير العالمي، إذ فتح أبواب الأمل أمام ملايين البشر المؤمنين الصالحين الذين يبتهلون كل صباح وكل مساء أن يجنبهم الله شر الوقوع في حبائل الشيطان الرجيم، طالبين العفو والمغفرة من زلات وآثام وقعوا فيها وانساقوا إليها بإغراء هذا الشيطان الماكر اللعين.

مولد زرادشت

ليس من السهل استخلاص حياة زرادشت الصحيحة من وسط كل الأساطير العجيبة التي حكيت حول حياته، بل إن بعض العلماء قد شك أصلًا في وجود شخصية تاريخية تعرف باسم زرادشت. غير أن الدراسات

العميقة لكتب الأبستاق (Avesta) التي تتضمن حياة زرادشت وعقائده قد أثبتت وجود زرادشت في وقت من الأوقات.

وينتسب زرادشت إلى ذلك الجنس البشري المعروف باسم الجنس الهندي الأوربي. ولقد انقسم هذا الجنس منذ فجر التاريخ إلى قسمين عظيمين: انتشر أحدهما غربًا واستقر في أنحاء أوروبا المختلفة، أما القسم الآخر وهو الجنس الآرى فقد انقسم بدوره إلى شعبتين استقرت إحداهما فيما يعرف اليوم بالهند، واستقرت الأخرى فيما يسمى بفارس، وهي ما تعرف اليوم باسم إيران.

ولا تزال أصول كثير من الكلمات المستعملة في البلاد التي انتشر فيها الجنس الهندي الأوربي واحدة مثل كلمات: أب وأم وأخ، فهي واحدة في اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية وكذلك في اللغة الفارسية القديمة واللغة السنسكريتية الهندية الشرقية القديمة. وتتشابه كذلك إلى حد كبير كثيرٌ من عادات وطباع الشعوب التي هي من أرومة الجنس الهندي الأوربي.

ولسنا نعرف على وجه التحقيق المكان الذي ولد فيه زرادشت، غير أن القول الراجح أنه ولد في الجزء الغربي من إيران الذي يعرف باسم آزربيجان، وأنه قام بدعوته الدينية في منطقة بلخ، وقيل أيضًا إن أسرة أمه جاءت من إقليم الري.

ويحيط الشك أيضًا بتاريخ مولده، فكتّاب اليونان واللاتين يرجعون بتاريخ مولده إلى أقدم الأزمنة، فنجد مثلًا أن بلينوس يؤكد – معتمدًا في

ذلك على أرسطو– إن زرادشت كان على قيد الوجود قبل وفاة أفلاطون بستة آلاف سنة. بينما يذكر بلوتارخ أن زرادشت كان يعيش قبل حرب تروادة بخمسة آلاف عام. ويذكر البعض أن زرادشت كان موجودًا في عهد سميراميس ملكة نينوي وملكها نينوس. ويرجع أحد الكتّاب المحدثين عهد زرادشت إلى عشرين ألف عام قبل الميلاد بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول إنه في ذلك العهد السحيق في القدم كان زرادشت صاحب الديانة الزرادشتية هو في الحقيقة سابع من تسمى بهذا الاسم. ويذهب بعض العلماء من ناحية أخرى إلى أن زرادشت ولد عام ألف قبل الميلاد وذلك إسنادًا إلى نص ورد في إحدى الكتابات الأشورية.

على أن الروايات الزرادشتية نفسها تؤيدها في ذلك المصادر الغربية تجعل بداية تعاليم زرادشت قبل وفاة الإسكندر المقدوني بـ ٢٧٢ سنة وهذا يحدد مولده بعام ٦٦٠ قبل الميلاد. وكانت وفاته عام ٥٨٣ قبل الميلاد.

وعلى هذا يكون اليهود قد أُسروا في بابل إبان حياة زرادشت وعادوا بعد وفاته بقليل إلى بيت المقدس، أعادهم إليها الملك كورش (Cyrus) العظيم.

وجاء في الأساطير البهلوية أن أمه رأت في منامها بعد خمسة أشهر من حمله أن سحابه سوداء قد أحاطت ببيتها، وأن مخلوقات بشعة قد هبطت عليها من هذه السحابة وانتزعت الطفل من رحم أمه وهمت بالقضاء عليه، فأخذت الأم في البكاء والعويل خوفًا وفزعًا، غير أن زرادشت هدَّأ من روعها قائلًا إن لا خوف ولا بأس عليه؛ لأن الله القدير

قد اصطفاه وصادقه . وما لبث أن هبط من السماء جبل يشع منه النور مزق هذه السحابة السوداء إربًا؛ فاختفت هذه الكائنات البشعة ثم انبثق من هذا الجبل طيف شاب يشعّ منه النور يحمل في إحدى يديه غصنًا منيرًا، وفي اليد الأخرى كتابًا من عند الله وكان هذا الطيف يمثل عظمة الله وجلاله. وقد أعاد هذا الطيف الطفل إلى أمه وسكَّن من روعها قائلًا إن الضر لن يمس هذا الطفل؛ لأن الله ذاته يحميه ويرعاه، ثم أضاف قائلًا وهو يهم بالانصراف: إن هذا الطفل الميمون الطالع سوف يصبح نبي أهرمزدا.

وعندما خرج زرادشت إلى نور الحياة لم يبك مثل سائر الأطفال وإنما ضحك بصوت عال اهتزت له أركان البيت. ويقال إنه ظهرت ولادته عدة خوارق منها: أن الأرواح الشريرة قد هربت إلى العالم السفلي عندما جاءها نبأ ولادته، كما تذكر المصادر البهاوية أن نورًا إلهيًا غمر بيت أبيه بورشاسب عندما ولد له ابنه زرادشت.

وتذهب الروايات أن ملكًا عاتيًا من ملوك ذلك الزمن يدعى دُرَنسُرام بلغته أنباء هذا الطفل العجيب الذي ضحك عند ولادته، وأنباء الخوارق التي صاحبت مولده؛ فعقد العزم على قتله حتى لا يكون منافسًا له في سلطانه وجبروته.. فأسرع إلى بيت بورشاسب وانتزع الطفل من مهده واستل خنجره وهمَّ بذبحه، ولكن يد الملك شُلّت ويبست إذ أشلها الإله أهرمزدا. فأمر هذا الملك بأن يلقي الطفل على كومة من الحطب المتأجج، ولكن النار كانت بردًا وسلامًا عليه فقد حفظه أهرمزدا من الهلاك. ثم ألقى به بعد ذلك في ممر ضيق للثيران لكي تطأه بأقدامها، غير أن بقرة أحاطت

الطفل بقوائمها وأبعدت عنه بقرونها الثيران والبقر. وقد حاول الملك إهلاكه بطرق أخرى ولكن الإله أهرمزدا حماه ورعاه.

الاسم زرادشت

يعرف زرادشت عادة في المصادر الإفرنجية باسم «زورواستر» (Zoroaster). ولم يكن هذا هو الاسم الذي ولد في أسرة «سبتما» أي الأسرة البيضاء عام ٦٦٠ قبل الميلاد؛ لأن هذا الاسم هو الصيغة اليونانية للاسم «زراثسترا» (Zarathustra) الوارد في كتاب الأبستاق. ومعنى كلمة «زراث» (Zarath) يعذب. أما كلمة «أسترا» (Ustra) فمعناها جمل.. وعلى ذلك يكون معنى هذا الاسم «معذب الجمل». وقد جرت العادة في القبائل البدائية أن ينسب الطفل إلى أول فعل ملحوظ من فعاله، وهذا يدعو إلى القول بأن تعذيب الجمال كان أول فعل عرف به هذا الحكيم الآرى في حداثته.

وذكر اسمه في الكتابات الفارسية المتأخرة، أي من العهد البهلوي بصيغة زراتشت (Zaratusht) وهي الصيغة التي أخذها العرب ونطقوا بها مخففة فقالوا: زرادشت، أي بالدال بدلًا من التاء.

ومهما يكن من الأمر فإن اسم زرادشت قد ورد في نحو عشرين صيغة مختلفة الرسم والهجاء.

كان أبوه يدعى بورشاسب وأمه دغدوفا. وترجع الروايات نسبة إلى كيومرت، وهو آدم في الأساطير الفارسية، وهو جده الخامس والأربعون.

ويقال أن زرادشت هو أوسط خمسة أبناء وأنه تزوج من ثلاث نساء ظللن على قيد الحياة بعد وفاته. ولا ندري أكان زرادشت قد تزوج هؤلاء النسوة الثلاث في وقت واحد أم أنه تزوج الواحدة منهن بعد طلاق الأخرى. وقد رزق من زوجته الأولى ابنًا وثلاث بنات، ومن الثانية – وكانت أرملة– ولدين. أما زوجته الثالثة – وكانت أحب نسائه إلى قلبه – فلم تعقب ولدًا.

زرادشت في حداثته

ما إن بلغ زرادشت السابعة من عمره حتى عهد به إلى أحد الحكماء ليقوم على تعليمه وتهذيبه. واتفقت الأساطير على أنه قد لاحت عليه وهو في السن المبكرة دلائل النجابة والذكاء المفرط والثورة على التقاليد وعلى الأوضاع السائدة المقررة. وتذهب الروايات أنه مرض وهو في السابعة من عمره فاستدعى أبوه السحرة ليقوموا على تطبيبه. فأعدوا الدواء وطلبوا إليه أن يشر به ليستريح من آلامه ويشفى من مرضه، غير أن زرادشت أدرك ببصيرته أنهم أعدوا له سمًا ناقعًا كي يزيحوا من طريقهم هذا المنافس الخطر فكان أن أراقه على الأرض ولامهم على غدرهم به.

وكان للسحرة في تلك الأيام مكانة عظيمة ونفوذ كبير، وكان بورشاسب واقعًا تحت سحرهم كغيره من الناس. ففي يوم من الأيام أولم وليمة كبيرة لنفر من هؤلاء السحرة، وبعد الانتهاء من تناول الطعام عرضوا أمامه ولده زرادشت بعض أعاجيبهم وألاعيبهم، فأخذ بورشاسب يمتحدح مهارتهم ومقدرتهم غير أن زرادشت أهاب بأبيه أن يبتعد عن هذا الطريق

الخاطيء الذي يسلكه السحرة والمشعوذين، وأن يتجه بقلبه وعقله إلى الله إذا أراد العلم والمعرفة. ولقد اهتاج بورشاسب من حديث ولده وقام بينهما جدل عنيف انتهى بأن خرج السحرة من البيت وهم في أشد الخجل والأرتباك.

ومهما يكن من الأمر فإن زرادشت قد بلغ مبلغ الرجال وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره، نستدل على ذلك من أن والده قد عهد إليه بنصيب من ممتلكاته وهو في هذه السن ليديرها بما عرف عنه من بصيرة وحسن إدراك. ونحن لا نعرف إلا القليل عن زرادشت فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين من عمره، وتذكر المصادر الخاصة بهذه الفترة من حياته أنه كان كثير التحدث مع علماء البلاد وحكمائها، كما كان يتردد على الأماكن التي تلتقي الطرق التجارية الهامة المؤدية إلى مختلف البلاد؛ ليتيسر له التحدث إلى أكبر عدد من أهل العلم والفلسفة من مختلف البقاع، وبذلك اجتمعت له معلومات كثيرة وتجارب عدة استقاها من الرحالة المجربين ومن التجار والحجاج.

وقد عقد زرادشت العزم على أن يكسب العلم والمعرفة عن طريق التأمل والتفكير، فأخذ يفكر تفكيرًا عميقًا شاملًا في أحوال هذا العالم. ورأى بثاقب بصره أن الحياة ليست نسيجًا لحمته البهجة وسداه السعادة والسرور، إنما هي مزيج من الظلم والاضطهاد والفقر والحرمان والطمع والجشع والغش والخداع والحسد والغيرة والخبث والبغض وغير ذلك من الرذائل التي تركت في نفسه أثرًا عميقًا.

ومن الطبيعي أن يخجل زرادشت الشاب من تلك الوصمة التي لحقته إبان طفولته وهي تلقيبه بلقب «معذب الجمال»؛ لذلك حاول جهده أن يزيل عنه تلك الشهرة السيئة التي تدل على عكس ما أثر عنه في طفولته. وهناك روايات وقصص كثيرة تسرد علينا هذه الفعال، منها أنه دأب على إطعام الفقراء والمساكين في زمن حلّت فيه المجاعة بالناس. ويؤثر عنه أنه صادف في يوم من الأيام كلبة وصغارها وقد أضناها الجوع فأسرع إلى بيته وأحضر الخبز ليقدمه لهذه الكلبة وصغارها، ولكنه ما إن عاد إليها حتى وجدها قد نفقت، فأثر ذلك في نفسه أثرًا عميقًا انعكس في قانونه الذي سنه للناس فيما بعد إذ فرض فيه عقوبات شديدة على الشخص الذي يسيء معاملة الحيوان أو يمنع عنه الغذاء.

وتدلنا بعض الروايات على أن زرادشت قد أخذ وهو في شبابه يتحلل من ربقة تلك العادات والتقاليد التي كانت شائعة في عهده، فنجده مثلًا يُصر على أن يرى وجه المرأة التي سوف يتزوجها ويتحدث إليها قبل أن يعقد عليها وكان ذلك من محظورات في ذلك العهد.

وتؤكد الأساطير الفارسية أن زرادشت قضي فترة طويلة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره في التأمل والتفكير. ويذهب أتباعه إلى أنه قضى في الصحراء سنوات كثيرة يتغذى من قطعة واحدة من الجبن تتجدد من تلقاء نفسها. وهم يذكرون أن النور كان يغمر الجبل الذي لجأ زرادشت إلى أحد كهوفه. وإذا صحت تلم الرواية فليس من الغريب أن يكون ذلك بسبب ثورة بركان قريب أنار الجبل بلهبه وحممه، أو أن يكون هذا النور صادرًا

عن عاصفة كهربائية أحالت الجبل وما حوله إلى قطعة من النور.

وما إن بلغ زرادشت الثلاثين من عمره حتى اعتزل الناس وآثر الوحدة، والعزلة هي محراب الطبيعة الجليل حيث تستطيع النفوس أن يناجي بعضها بعضًا وسط ذلك الصمت المطبق والسكون المخيم على الكون. لجأ زرادشت إلى قمم جبال الهضبة الإيرانية بعيدًا عن زحمة الحياة وجلبتها حيث لا صوت إنسان يقطع عليه تيار تفكيره أو يصرفه عن تأملاته. وهناك اتخذ من المياه والطير والحيوان والشمس والقمر والنجوم والسيارات أساتذة له يتلقى عنها أسرار الحياة. فأخذ يتأمل في جوهر هذا الخالق المبدع لكل هذه الكائنات والمخلوقات، وفي متناقضات الحياة، وفي مصير الإنسان بعد الموت. وقد استطاع وهو في هذا المحراب الطبيعي الجليل الذي هو من صنع الواحد القدير أن يرى بروحه أشياء لم ترها عيناه من قبل. هنا في هذه العزلة التامة أستطاع زرادشت بعقله المبدع أن يدرك كنه الله، وقد أطلق عليه اسم أهرمزدا أي الإله الحكيم.

وذهب الكتّاب اليونانيّون المتأخرون إلى أن زرادشت كان لديه في كهفه بالجبل مثال مصغر يمثل النظام الشمسي. ولا ريب في أن طبيعة الصحراء الصامتة بسمائها الصافية قد جعلت زرادشت يتجه ببصره إلى كبد السماء يراقب نجومها في الليالي الصافية، ويتتبع حركاتها، فكان بذلك مجوسيّ الشرق الذين يعدون بحق رواد علم الفلك الحديث.

الدعوة إلى الإصلاح الديني والاجتماعي

لقد تم التمهيد للنبوة المنتظرة إذ بلغ زرادشت إبان عزلته في الجبال

شأوًا كبيرًا في الحكمة والصلاح والتقوى، وشعر في قرارة نفسه أنه رسول من عند أهرمزدا- الله عند زرادشت- وأنه على أتم استعداد لأن يحمل هذه الرسالة وأن يبلغها لبني البشر. لقد انتهت عند ذلك الحد مرحلة من مراحل حياته، وأصبح الآن على تمام الأهبة لأن يخرج من عزلته وأن ينخرط مرة أخرى في ركب الحياة وأن يذوق حلوها ومرها. لقد كانت لديه رسالة جديدة وأمل جديد وطريقة جديدة يجدد بها هذا العالم الذي ران عليه اليأس والقنوط وفقد الناس فيه الأمل والرجاء، فكان هو حامل رسالة الأمل إلى بني الإنسان الساعي إلى تخليصهم مما هم فيه من شرور ومفاسد وضلالات، العامل على إنشاء نظام اجتماعي وخلقي جديد. وقد كانت هذه المهمة صعبة محفوفة بالمخاطر، ولكن زرادشت عقد العزم على تحقيق هذه الرسالة. وكان يرى أن رسالته موجهة إلى البشر أجمعين، غير أن هذه الأمنية التي كان يحلم بتحقيقها لم تتحقق أبدًا لا في عهده ولا في الأعصر التي أعقبته. فإن الزرادشتية- وإن كانت تدعو إلى التوحيد وإلى طريق الحق والاستقامة- لم تكن تحمل في طياتها دلائل على أنها سوف تصبح دينًا عالميًا، لذلك فهي لم تنتشر إلا في منطقة محدودة أي أنها كانت دينًا إقليميًا، وقد يكون من العجب أن الزرادشتية قد بقيت على وجه الأرض حتى اليوم وإن لم يزد أتباعها على **١٢٥** ألف نسمة.

اتجه زرادشت أول ما اتجه بعد عزلته إلى مسقط رأسه وقد عرفه أهله وبنو عشيؤته بعد هذه الغيبة الطويلة وإن كانت قد تغيرت ملامحه وتقدمت به السن واستطالت قامته، غير أن الشيء الذي بهرهم هو ذلك النور

الساطع الذي كان يشع من طلعته، وكأن نفسه الطاهرة النقية قد فاض نورها فأنعكس على وجهه.

أخذ زرادشت يتنقل بين الناس ويتحدث إليهم في بساطة وإخلاص وثقة بالنفس وعدم تكلف، وذلك قد أكسبه احترام كل من قابله وتحدث إليه. وكان احترام الناس له مشوبًا بالإعجاب والتقدير؛ لأنه أخذ يتحدث إليهم بأحاديث وآراء لم يسمعوا بها من قبل، كما أخذ يبصرهم بأشياء لك تكن معروفة لديهم.

ذكر زرادشت أنه جاءهم من عند أهرمزدا الإله الأعظم الذي هو فوق كل الآلهة التي عرفوها من قبل. وأن هذا الإله قد اختاره ليبلّغ رسالته إليهم ويدعوهم إلى دين أسمى من الدين الذي يعتنقونه. وقال لهم إن الكهنة ورجال الدين يهتمون أشد الاهتمام بالطقوس والشعائر الدينية والمظاهر الخارجية للدين أكثر من اهتمامهم بلب الدين وجوهره، وأن لآلهة التي يعبدونها مشغوفة بالقرابين التي تقدم إليها من الحيوان والطير. أما الدين الجديد الذي يدعو إليه فلا يقوم على شيء من هذا، إنما أساسه القلب والوجدان. إن القلب الكسير والنفس التائبة النادمة هي أحسن قربان يقدمه المؤمن إلى خالقه، وإن دموع الندم المنسكبة من قلب تائب نادم هي القربان المفضَّل عند الله. أما موضوع هذا الدين الجديد وهدفه فهو السلوك المستقيم، وعباداته قائمة على العدل والورع والاستقامة، وهذه صفات باطنة يتصف بها القلب والضمير، أما المظاهر الخارجية لهذا الدين فهي النية الطيبة والكلام الطيب والأعمال الطيبة.

كانت هذه الدعوة غريبة على أسماع هؤلاء الذين تجمعوا حول هذا النبي، وقد تركت في نفوس بعضهم أثرًا عميقًا لبساطتها وشعروا بميل نحو دعوته. وكان بين هؤلاء المستمعين نفر اجتمعوا حول زرادشت لينقلوا أقواله إلى أتباعه من رجال الدين الذين أخذوا يتوجسون شرًا من هذه الدعوة الجديدة فراقبوا زرادشت عن كثب وانتظروا ما عسى أن تؤدي إليه هذه الدعوة الجديدة، غير أن انتظارهم لم يطل فإن دلائل الاستنكار وهمسات الاستهجان ودمدمة السخط والحنق قد ظهرت في أنحاء مختلفة من إيران مؤذنة بهبوب العاصفة.

انزعج كهنة الدين القديم أيما انزعاج ، وحاولوا أن يحولوا دون زرادشت وجمهور المستمعين له بحجة أن هذه الآراء مما يهدد أمن الناس وطمأنينّهم. وكثيرًا ما اجتمعوا وإياه وجادلوه في المسائل التي يثيرها فكان ينفوق عليهم في جدله ونقاشه، وافضى هذا إلى الحط من أقدارهم بين الناس، فامتنعوا عن الاجتماع وأخذوا يدسون له للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره فيكون القضاء المبرم عليهم، وهم الذين يغنمون الغنائم الهائلة من وراء هذه الطقوس والشعائر الدينية المعقدة، وينعمون بتلك القرابين التي يقدمها الناس إلى الآلهة بإرشادهم.

وكان لهؤلاء الكهنة في تلك الأيام شهرة واسعة في أعمال الرقي والتعاويذ لطرد الجن والعفاريت والأرواح الخبيثة، وكانوا إلى جانب ذلك يفسرون الأحلام وينبئون عن المستقبل ويحولون دون تأثير العين الحاسدة وغير ذلك من الخرافات التي كانت سائدة بين الناس في ذلك الوقت. وقد

هاجمهم زرادشت وعاب عليهم هذه الأعمال الخرافية، وناشد الشعب أن يقلع عن هذه الأوهام والضلالات التي جرّت عليه البؤس والشقاء، وحذّرهم من السير في هذا الطريق الضال الذي رسمه لهم هؤلاء الكهنة ومن يسير على منوالهم على يد زرادشت فحنقوا عليه وعقدوا العزم على القضاء عليه.

أتهم رجال الدين زرادشت بأنه يدعو إلى عقائد وآراء تهدم دين آبائهم وأجدادهم وتقضي على الشعائر والعبادات المقررة منذ أقدم الأزمان، كما أنه يسب آلهتهم ويكفر بها ويحض الناس على أتباعه، لذلك لجأوا إلى الطبقة الحاكمة طالبين إبعاده عن البلاد لأنه خطر يهدد أمن الناس وسلامتهم.

وقد استمع الحكام لرجال الدين فهددوا زرادشت وأخافوه كما هددوا هؤلاء الذين أخذوا يميلون إلى تعاليمه وآرائه الجديدة بالنفي والحرمان من المجتمع، فتخلى الناس عنه كما تنكر له أهله وعشيرته، وهكذا تخلى الناس جميعًا عن زرادشت فلجأ إلى أهرمزدا يسأله العون في تلك المحنة كما يعاون الصديق الصديق.

ترك زرادشت أهله ومسقط رأسه وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر، وكانت شهرته تسبقه إلى كل مكان يحل فيه وأخذت الألسنة تلوك القول بأن رجلًا داعيًا يسب الدين ورجال الدين؛ لذلك لم يستضفه أحد، وإن كانت آداب الضيافة في المشرق تقضي بفتح الأبواب أمام أي طارق أو غريب. وتذهب الروايات إلى أن زرادشت كان إذا حل ببلد من البلاد

وجد الأبواب كلها موصدة في وجهه فلا يجد أمامه إلا حظائر الخيل والبغال والحمير.

وهكذا مرت الأيام والفصول والأعوام وزرادشت يعيش عيشة ضنكًا، وقد قطع إيران كلها طولًا وعرضًا وهو يعظ الناس ويرشدهم ويجادلهم. وأخيرًا قُدر له أن يستهوى بعض المريدين وكان أولهم ابن عمه الذي آمن برسالته وغدا تلميذه المقرب إليه المتعصب لدعوته.

وصل زرادشت في طوافه إلى الشرق الأقصى من إيران، أي إلى البلاد التي كانت تعرف باسم بكتريا وهناك أخذ أتباعه يزيدون يومًا بعد يوم، ثم قوى مركزه واشتد ساعده عندما اعتنق الملك كشتاسب هذا الدين الجديد، فكان ذلك بمثابة الدعامة الكبرى للديانة الزرادشية.

ويبدو لنا زرادشت من خلال القصص والأساطير المختلفة أنه كان مصلحًا اجتماعيًا، وكثيرًا ما تصوره لنا المصادر الزرادشتية القديمة في صورة الداعي إلى الإصلاح الزراعي بين شعب يكاد يكون من القبائل الرحّل. وهو نفسه يصرح بأن دعوته جاءت إليه عن طريق «خوار البقر». وقد أفلح زرادشت في لم شمل هذه القبائل المتفرقة وجعل منها أمة واحدة متماسكة وذلك بفضل الدين الجديد الذي بشّر به.

والظاهر أن زرادشت قد وضع مشروعات الإصلاح الاجتماعي التي قام بتنفيذها خلال الفترة التي اعتزل فيها الناس في بطن الجبل، وكان يعتقد أن هذه الإصلاحات الاجتماعية جزء من رسالته الروحية. لقد ضاق زرادشت ذرعًا بتلك الخرافات والأوهام التي كانت تأخذ بخناق الشعب

الفارسي فجعلت حياته في ظلام دامس وحالت بينه وبين التقدم، كما أزعجته تلك الهجمات المتتابعة التي كان يشنها التورانيون على بني قومه فتروع الآمنين الوادعين وتنشر البؤس والشقاء في ربوعهم بعد الخير والهناء. لقد شعر شعورًا عميقًا– مثله في ذلك مثل بوذا في الهند بعد ذلك بقرن من الزمان– بتلك الشرور والظلام والكوارث التي كانت تأخذ بخناق البشر، ولكنه أتى بحل لهذه المعضلة يباين الحل الذي جاء به بوذا كل المباينة.

لقد أوحت إليه لحظة من لحظات التأمل والتفكير أن هذه الشرور والآلام ما هي إلا من فعل روح خبيث، هي من فعل الشيطان الماكر كبير الأفاكين.

«إنني سوف لا أستسلم إليه، إن ما رد الظلام الكبير سوف يقهره إله النور».

«سوف أذهب لأعظ قومي وأخبرهم أن آلهتهم القديمة التي صورتها لهم المخاوف والأوهام ما هي إلا من صنع الشيطان الأكبر أهرمن؛ وأخبرهم أن غارات التورانيين على بلادنا واستيلاءهم على قطعاننا وأموالنا هي أيضًا بإيعاز من هذا الشيطان للشرير».

«ولكني سوف أنادي بينهم أيضًا بأن الوقت قد حان للقضاء على هذا الشيطان، وأن أهرمزدا إله النور والحق سوف يقهر أهرمن إله الشر والظلام».

جاشت هذه الخواطر في نفس زرادشت فاطمأن إليها وعقد العزم على تحقيقها بكل ما أوتي من قوة وجهد، وعلى الرغم من جميع الصعاب التي قد تعترض طريقه.

ولقد تجلى الله الواحد القهار لزرادشت وهو في هذه الحالة من التطهر النفسي في شكل رؤى عجيبة وأنوار قدسية ساطعة. وهذه الرؤى موضع تفاصيل وجدل طويل بين الكتّاب المتأخرين لأنهم يدركون أهميتها في حياة زرادشت، بل هم يؤرخون حياته ابتداء من هذه اللحظة الرهيبة، ويعدون السنة الحادية والثلاثين من عهد الملك كشتاسب أول من تاريخ الديانة الزرادشتية. ففي اليوم الخامس عشر من شهر أرتفاهستو (٥ مايو سنة ٦٣٠ ق.م) هبط على زرادشت الإلهام السماوي.

وتذهب الأساطير والروايات المختلفة أن زرادشت كان واقفًا في فجر ذلك اليوم على ضفة مجرى نهر ديتي المقدس ثم هم بأخذ حفنة من مياه ذلك النهر، وإذا بشبح مقبل عليه من ناحية الجنوب وفي يده قضيب يشعّ منه النور الذي يخطف الأبصار. كان ذلك الشبح هو «فوهومناه» كبير الملائكة، وكان حجمه يكبر حجم الإنسان بتسع مرات. نادى «فوهومناه» زرادشت وطلب إليه أن يهلي عنه بدنه ويتبعه إلى حيث يستمع لتعاليم أهرمزدا العظيم وملائكته الأطهار. وقد لاحظ زرادشت لأول مرة وهو في حضرة أهرمزدا وملائكته أن لا ظل له فعزا ذلك إلى شدة الضوء المنبعث من هذا المجتمع الرباني. والواقع أن جلال الموقف وهيبته أفقدا زرادشت ذاكرته، وإلا كان أدرك أن «فوهومناه»

قد أمره بأن يتخلى عن بدنه إلى جانب النهر المقدس.

ولقن زرادشت وهو في الحضرة الإلهية، الأركان الأساسية للدين الحق، واطلع على الرموز الخفية والأسرار العلوية التي تنبيء عما سيحدث من أمور في تاريخ الديانة الزرادشتية. وأخيرًا عاد زرادشت من حضرة أهرمزدا بعد أن تلقى الرسالة، وهب من تلك اللحظة يعظ الناس ويبشرهم بهذا الدين الجديد.

لقد كان النور المنبعث من أهرمزدا وملائكته هو الشيء الذي أذهل زرادشت واستحوذ على لبه. وأهرمزدا في الديانة الزرادشتية معناه إله الحكمة. غير أن الحكمة والحق والنور هي جميعًا بمعنى واحد في لغة زرادشت. وقد أصبح للنور والنار من ذلك الوقت شأن كبير في الديانة الزرادشتية. وينكر المجوس– وهم أتباع زرادشت الموجودون حتى الآن– أنهم يعبدون النار. والحق أن المجوس بعيدون عن الوثنية ولكنهم يجعلون للنار المكان الأسمى في احتفالاتهم وطقوسهم الدينية.

رسالة زرادشت

تقوم رسالة زرادشت التي خرج بها لإنقاذ العالم على وصايا غريبة قد تبدو نابية على الأسماع، كما أنها لا تتفق أبدًا والآراء والتعاليم التي قيلت قديمًا وحديثًا لخلاص العالم وهداية الناس إلى الطريق المستقيم. ويمكن رد هذه الوصايا إلى أربعة أركان أساسية وهي:

«أعبد أهرمزدا.

مجد الملائكة.

العن الشياطين.

تزوج أقرب قريباتك».

ومن الواضح أن هذه الأسس لا تصلح لأن تكون قواعد دين جديد ينظم أمور الناس ويهديهم إلى طريق الحق والصواب، فإن عبادة أهرمزدا وتمجيد الملائكة ولعن الشياطين لا تتصل عن قرب أو بعد بأحوال الناس في حياتهم اليومية. ولا ندري الحكمة في أن يتزوج المرء من أقرب قريباته؛ لذلك كان الفشل نصيب زرادشت في المرحلة الأولى من دعوته، فلم يستمع له أحد من بني وطنه وازدراه الناس ولحقت به الفاقة والحرمان، يدلنا على ذلك تلك الصلاة الحارة التي توجه بها إلى أهرمزدا عندما تخلى عنه الناس يسأله الغوث والعون:

«إنني أسألك أن تصدقني القول يا إلهي أهرمزدا إذا كنت سوف أنا حقيقة ذلك الجزاء الذي وعدتني به وهو لا يعدو عشرة أفراس وجوادا وجملًا. وهل أحظى عن طريقك أيها الإله مزدا بالسعادة والخلود؟».

استطاع زرادشت إبان رحلته الطويلة في بلاد فارس وخاصة إلى الجزء الجنوبي الغربي ناحية الهند أي إلى بلاد سيستان الواقعة بين أفغانستان وبلوخستان أن يقلّب النظر في أركان دعوته وأن يحوّر رسالته بعض الشيء حتى تتلاءم وحاجات الناس في ذلك الوقت.

لذلك نجده يقلع عن التبشير بالزواج من أقرب القريبات، وأخذ

يحث الناس وخاصة طبقة الحكام والأمراء على فعل الخير والعدل بين الناس ولعن الشيطان رأس المصائب جميعًا وعبادة أهرمزدا الإله الأعظم.

وتذكر الروايات أن حاكم سيستان قد استجاب لما يقول به زرادشت من حيث العدل والإنصاف بين الناس ولعن الشياطين وامتداح العمل الطيب وذم الخبيث من الفعال ولكنه لم يذهب إلى أكثر من ذلك ولم يعتنق هذا الدين الجديد.

والواقع أنه قد انصرمت سنوات عشر ما بين أول إلهام هبط على ورادشت وأول شخص اعتنق هذه الديانة الجديدة. وتذكر الروايات أن زرادشت قد شاهد خلال هذه السنوات العشر ست رؤى جديدة كان يخرج بعد كل رؤيا منها بمعلومات جديدة عن العالم السماوي وأسرار الحياة. وكانت كل رؤيا من هذه الرؤى تتم على يد كبير من ملائكة أهرمزدا، وقد زوّده كل واحد من هؤلاء الملائكة بالأسرار الخاصة التي يقوم على حفظها والسهر على رعايتها.

لقد حثه الملك «فوهومناه» في الرؤيا الثانية على العناية بالحيوانات النافعة، ولعل ضمير زرادشت كان ما يزال يؤنبه على ما بدر منه في حداثته من تعذيب للحيوان. وأوصاه اللك «أشا» بالعناية بالنيران على اختلاف أنواعها. وزوّده الملك «شاثرا» بكل المعلومات والأسرار الخاصة بالمعاون. وأطلعه الملك «أرميتي» على أحوال البلاد والأقاليم المختلفة. ولقنَه الملك «هورفتات» كل المعلومات المتصلة بالمياه وكيفية استعمالها والإفادة منها. أما الملك السادس والأخير «أمرتات» فقد زوّده بكل المعلومات الخاصة بعالم النبات.

وإذا رجعنا إلى الكتب المقدسة الزرادشنية نجد أن هذه الرؤى جميعًا قد حدثت إبان أشهر الشتاء وأنها تمت جميعًا وهو في غرب إيران. والظاهر أن زرادشت قد خص أشهر الصيف برحلاته التبشيرية ناحية المشرق، كما خص أشهر الشتاء بالاتصال بالقوى السماوية، أما فيما عدا ذلك من أشهر السنة فكان يقضيها في التأمل والتفكير داخل حدود وطنه.

والواقع أن هذا النبي الشاب كان يعمل على وضع نظام شامل لجميع مشكلات الحياة النظرية منها أو العملية على سواء. فكان أن ارتبطت في ذهنه جميع الفضائل والواجبات المختلفة فقام تجسيدها في أفراد الملائكة وجعل لكل ملك منهم عالمًا خاصًا يقوم بتدبيره والسهر عليه. لقد أقام زرادشت مذهبًا فلسفيًا دينيًا لا شك في أن العالم مدين له به. فهو بذلك أول من فلسف الدين.

إن أفلاطون وفيثاغورس وهيرودتس جميعًا مدينون لهذا الحكيم بكثير من آرائهم وتعاليمهم، ناهيك بفلاسفة الرومان واليهود والنصارى والمسلمين.

الإغراء

ما كاد زرادشت يتلقى آخر إلهاماته التي تتضمن جميع الأسرار والمعلومات التي تتصل بالحياة وهي التي ضمنها فيما بعد كتاب الأبستاق (Avesta) إنجيل الديانة الزراجشتية- حتى عادت خلائق الشر إلى إغرائه وتثبيط همته وكان هذا الإغراء والتثبيط غاية في المكر والدهاء.

لقد ظل زرادشت يعظ الناس ويبشر بهذا الدين الجديد سنوات

عدة، وكان قد بلغ وقتذاك الأربعين من عمره ولكنه لم يجتذب إلى هذا الدين الجديد مؤمنًا واحدًا. وكان من الطبيعي والحالة هذه أن يعتريه اليأس والقنوط بعد هذا الجهد الذي بذله عبثًا في سبيل هداية الناس، وأن يعود في هدوء وصمت إلى دين آبائه وأجداده.

وقد استغلت خلائق الشر هذه الحالة النفسية التي وصل إليها زرادشت فعملت على إغرائه وتثبيط همته لكي يترك ما هو فيه.

وحدث أن كا زرادشت في يوم من الأيام في زيارة أبيه فجاءه الشيطان ووسوس إليه قائلًا: «إنك ولد بورشاسب، لقد عبدتني أمك».

وهنا نجد أن الشيطان قد لجأ في إغرائه إلى أقدس الروابط الإنسانية وهي الرابطة التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة وخاصة بين الابن ووالديه فكيف يخالف الابن ما جرى عليه الوالدان من عبادة ودين؟

غير أن زرادشت لم يعبأ بهذه الوسوسة وظل سائرًا في طريقه لا يثنيه عن عزمه شيء. ثم جاءه الشيطان مرة أخرى ووسوس إليه قائلًا: «أيها النبي المجهد يا من ليس له تابع يشد من أزره، بأي سلاح سوف تتغلب على هذا الدين القائم؟».

وفي هذه المرة نجد الشيطان يوسوس لزرادشت الذي أجهده النصب دون أن يفلح في اكتساب شخص واحد يشد من أزره فلعله وهو في هذه الحالة النفسية القلقة يقلع عما هو فيه ولكن زرادشت صاح قائلًا:

«سوف أقهرك أيها الشيطان بسلاحي الخاص وهو أمضى الأسلحة». ومضت فترة ليست بالقصيرة قبل أن يعاود الشيطان إغراء زرادشت من جديد، وأخيرًا ظهر له في صورة فتاة جميلة كان يتعشقها زرادشت في صباه، وأخذت تستعطفه وتحثه على ترك ما هو فيه والعودة إلى دين آبائه وأجداده، ولكنه خذلها وخرج منتصرًا من هذه المحاولات المتكررة التي حاول فيها الشيطان إغراءه والانتصار عليه، إذ كانت الرؤى التي شاهدها لا تزال ماثلة أمام عينيه فلم ينخدع بهذه الأقوال التي ألقاها اللشيطان في روعه.

وما إن مر زرادشت بهذه التجربة القاسية حتى لاح له أول معتنق لهذه الديانة الجديدة في شخص ابن عمه «متيوما».

وما كادت تلوح لزرادشت هذه البارقة الأولى من بوارق النصر والأمل حتى عاد من جديد إلى شكواه قائلًا: «أبعد عشر سنوات أستهوى رجلًا واحدًا!».

غير أن زرادشت على الرغم من يأسه قد أخذ يتنقل من لد إلى آخر كما ذكرنا يدعو الناس إلى هذا الدين الجديد إذ كان على يقين من أن الله سوف يثيبه على جهاده في سبيل نشر دينه إن لم يكن في هذا العالم الأرضي فسيكون في عالم السموات العلى.

زرادشت والملك كشتاسب

أنفق زرادشت السنتين اللتين أعقبتا اعتناق ابن عمه ميتوما لهذا الدين الجديد محاولا أن يكسب تأييد الملك كشتاسب لهذا الدين. وكان

كشتاسب في ذلك الوقت ملكًا قويًا يحكم الجزء الشرقي من إيران وهو القسم الذي تسود فيه الديانة الوثنية القديمة التي يمقتها زرادشت أشد المقت ويعمل على القضاء عليها.

خرج زرادشت قاصدًا قصر هذا الملك العظيم ليعرض عليه هذا الدين الجديد ويدعوه إلى اعتناقه فلعله يوفق إلى ذلك ويكسب تأييد هذا الملك فيكون ذلك أيذانًا بانتشار هذا الدين. وقد اعترض زرادشت وهو طريقه إلى قصر الملك إله الظلمة هو وأعوانه من خلائق الشر وطلبوا إليه أن يخفي كتاب الأبستاق الذي يحمله في يده وأن يعود أدراجه ولكن زرادشت تلا فصلًا من هذا الكتاب فانزعجت خلائق الشر وفرت أمامه. وما إن سار قليلًا حتى تصدى له زعيمان من زعماء البلاد عرفا بالطغيان والجبروت فعرض عليهما زرادشت أن يدخلا في دين أهرمزدا ولكنهما لم يكترثا لكلامه وهما بإيذائه. فسأل زرادشت ربه العون فلم يلبث أن هب إعصار قوي أطاح بالزعيمين في الهواء وظلا معلقين في الفضاء إلى أن تجمعت حولهما الطيور الجارحة وأخذت تنهش بدينهما بأظرها ةمناقيرها ولم تتركهما إلا عظامًا نخرة هوت بعد ذلك إلى الأرض.

وكانت شهرة زرادشت قد بلغت آذان الملك كشتاسب فأصبح مشوقًا لرؤية هذا النبي والتحدث إليه؛ لذلك ما إن بلغه خبر مقدمه إليه حتى استعد لملاقاته ومعه عدد كبير من رجاله. وكان من أمره أن دعى الحكماء والفلاسفة إلى بلاطه فلبى دعوته ما لا يقل عن ستين رجلًا منهم. وتذهب الروايات إلى أن زرادشت دخل بلاط هذا الملك وفي يده كتلة من

اللهب يحركها إلى كل ناحية دون أن تؤذيه. ثم ناول الملك هذه الكتلة من اللهب ثم حاشيته من بعده فلم يصبهم أي أذى. ولما سأله الملك أن يأتي بعجيبة تؤيد نبوته طلب زرادشت أن يصب على صدره النحاس المذاب. وقد صبوا عليه النحاس المذاب أربع مرات فلم على جسده أي أثر لهذه النيران المذابة. وبعد ذلك طلب الملك من الحكماء والفلاسفة أن يحاجوه ويمتحنوه. فأخذوا يلقون عليه السؤال تلو الآخر وهو يجيب عن أسئلتهم الإجابة السديدة المفحمة. وظل هؤلاء الحكماء والفلاسفة ثلاثة أيام وهم يلقون الأسئلة العويصة النظرية منها والعملية الخاصة بأحوال الدنيا والعالم الآخر وزرادشت يجيب عنها الإجابة المسكتة المقنعة المدعمة بالبراهين الدامغة. وبعد أن أسكت زرادشت هؤلاء الحكماء بواسع علمه ومقدرته الكلامية انطلق يبشّر بهذا الدين الجديد في حضرة الملك وحاشيته، ثم طلب إليه أن يعتنق هذا الدين. وكان الملك كشتاسب قد تأثر غاية التأثر بما شاهده وسمعه من زرادشت ولكنه قال إن الاندفاع في مثل هذه المسائل الدقيقة أمر غير مستحب ولكنه سوف يتمهل بعض الوقت ليتدبر هذا الأمر. وفي تلك الفترة كان زرادشت موضع الحفاوة والإكرام وقد أسكنه الملك بيتًا جميلًا إلى القرب من قصره.

كانت الغيرة قد أنشبت أظافرها في قلوب هؤلاء الحكماء والفلاسفة الذين نالتهم الهزيمة على يد زرادشت فأرادوا أن ينتقموا لأنفسهم منه. فكان أن رشوا خادم البيت الذي يمزله زرادشت ودسوا في فراشه بعض بعض رؤوس القطط والكلاب وذيولها وغير ذلك من الأدوات التي

تستخدم في السحر الأسود. وفي يوم من الأيام كان زرادشت جالسًا إلى جانب الملك يقرأ له بعض فصول الأبستاق فتقدم هؤلاء الحكماء وأسروا في أذن الملك أن هذا الوافد إليهم إنما هو ساحر مبين، وأنه قد خدع الملك بقوة السحر وما عليه إلا أن يرسل بعض جنوده إلى بيت زرادشت ليحضروا له الأدوات التي يستعين بها على سحر وشعوذته. وما إن شاهد الملك هذه الأشياء الدنسة حتى طرح من أمامه كتاب الأبستاق– إنجيل الديانة الزرادشتية– وأرسل زرادشت إلى السجن مكبلًا بالحديد، وظل زرادشت ملقى في غياهب السجن إسبوعًا يعاني عذاب الغدر والخيانة.

واتفق في ذلك الوقت أن مرض فرس الملك الجميل المحبب إليه مرضًا غريبًا إذ كانت قوائمه تغوص في بطنه. وقد اغتم الملك لذلك واستدعى مهرة البياطرة والجراحين لعلاجه ولكن دون جدوى. وكان حزن الملك على الفرس شديدًا حتى أنه امتنع عن الطعام وعز عليه النوم.

ولما سمع زرادشت عن مرض الفرس من حارسه أرسل إلى الملك رسالة ينبئه فيها أنه يستطيع إبراء الفرس من مرضه. فاستدعاه الملك للحضور بين يديه وأخبره أنه إذا أستطاع حقيقة أن يبريء الفرس من مرضه فإنه يكون نبيًا حقًا لأهرمزدا. وقد طلب زرادشت من الملك أن يلبي له شروطه الأربعة، كل شرط منها نظير إبراء رجل من أرجل الفرس. وقد قبل الملك ما اشترطه زرادشت. فالشرط الأول أن يعتقد الملك بقلبه ولسانه أن زرادشت رسول من عند الله، والشرط الثاني أن يقوم الأمير أسفنديار– ولد كشتاسب– بنشر هذا الدين بحد السف، والثالث أن

تعتنق الملكة هذا الدين الجديد، أما الشرط الأخير فهو أن يدعو الملك خادم البيت ويطلب إليه أن يخبره عن حقيقة ما حدث بعد أن يؤمنه على حياته.

قام زرادشت بإبراء الفرس من مرضه وقام الملك من ناحيته بتنفيذ ما اشترطه زرادشت. وما إن تكشفت الحقيقة للملك حتى قام من مجلسه وقبل رأس زرادشت وجبهته واستماحه وأجلسه على العرش بالقرب منه، وهكذا اعتنق الملك كشتاسب الديانة الزرادشتية وقف نفسه وجنده وماله لنصرة هذا الدين، وبذلك تقوضت أركان الدين الإيراني الوثني القديم.

انتشار الديانة الزرادشتية

لقد انتشرت هذه الديانة الجديدة في طول بلاد إيران وعرضها انتشار النار في الهشيم، وأصبح شعار زرادشت «دين الميديين والفرس الذي لا يتغير». وما إن انقضى قرن من الزمان على وفاة زرادشت حتى كان الملك دارا المجوسي يقرع أبواب أثينا بجيوشه الحرارة وأصبحت الشعوب فيما بين الهند وشبه جزيرة اليونان تعتنق هذه الديانة الزرادشتية.

وكانت أسعد أيام زرادشت هي الفترة ما بين اعتناق كشتاسب هذا الدين الحديد إلى أن وافته المنية بالغًا من العمر السابعة والسبعين. وكان شغله الشاغل خلال ذلك الوقت محاربة أرجاسب ملك الصين الوثني. ولا ندرى على التحقيق هل اشترك زرادشت بنفسه في الحرب التي استعرت بين ملك إيران وملك الصين أو كان يشد أزر المحاربين بعظاته فقط.

وتذهب الروايات إلى أن زرادشت قد لقى حتفه في تلك الحروب إذ

تربص به محارب توراني وطعنه طعنة قاتلة، وتضيف تلك الروايات أيضًا أن زرتدشت رمى قاتله بمسبحة كانت في يده فقضت عليه.

وتذهب الأساطير إلى أن أحد كبار البراهمة في الهند خرج على رأس جيش عظيم لمحاربة زرادشت والقضاء عليه، ولكن ما إن ألتقى هذا البرهمي بزرادشت حتى أفحمه هذا الأخيرة بقوة جدله وحكمته وإطلاعه على جميع الأسرار، فلم يسع هذا البرهمي إلا أن اعتنق هذا الجديد وعاد يبشر به بين بني قومه، فاعتنق على يده ثمانون ألفًا من أهل الهند هذه الديانة الزرادشتية.

ولعل هذه الديانة قد بلغت أوجها في عهد الإمبراطورية الأكمينية. وكانت هذه الإمبراطورية العظيمة تضم ثلاثة شعوب أو دول مختلفة هي بكتريا وميديا وفارس. وكان أهل بكتريا يقطنون القسم الشرقي، والميديون القسم الشمالي الغربي، والفرس القسم الجنوبي الغربي. وقد تمّ اندماج هذه الشعوب بعضها مع بعض في أمة واحدة متجانسة تدين بالديانة الزرادشتية في الوقت الذي غزا فيه الإسكندر الأكبر مملكة فارس.

وقد سبق أن ذكرنا أن الملك كشتاسب كان سيف هذا الدين الجديد وحاميه. فلما توفى هذا الملك عمل أتباع هذه الديانة على نشر ديانتهم بمختلف الطرق. ولم يلبث أن ظهرت بينهم طبقة الكهنة وعليهم رئيس كبير جمع يديه السلطتين الدينية والزمنية للطائفة الزرادشتية. وقد أخذت هذه الطبقة على عاتقها مهمة نشر الديانة الزرادشتية، فأوفدوا المبشرين إلى بلاد بعيدة مختلفة لنشر هذه الديانة بين الناس وكانوا إذا عادوا إلى

أوطانهم من مهمتهم الدينية المقدسة احتفل أهل الديانة الزرادشتية بمقدمهم احتفالًا كبيرًا.

ولم يكن الطريق معبدًا أمام هذه الدعوة بل صادف المبشرون كثيرًا من الصعاب، حتى إن بعض الحكام قد منعوهم من دخول بلادهم.

ولكن على الرغم من ذلك فقد تمكن هؤلاء المبشرون من رفع ألوية هذا الدين في بقاع مختلفة بعيدة. فقد خضعت أرمينية للنفوذ الزرادشتي منذ تاريخ متقدم وساد فيها نوع مشوّه من هذه الديانة عدة قرون. كذلك كانت كبادوشيا وليديا وليسيا من دول العهد القديم مسرحًا كبيرًا للنشاط الزرادشتي.

وكان ملوك الإمبراطورية الإكمينية متسامحين مع جميع الأديان التي تدين بها شعوبهم. وتذكر المصادر أن هؤلاء الملوك كثيرًا ما قاموا بتشييد معابد الديانات المختلفة وترميمها على الرغم من أنهم كانوا على الدين الزرادشتي والمتحمسين له. وكان هؤلاء الملوك يردون كل أفعالهم العظيمة التي قاموا بها إلى أفضال أهرمزذا. فكان دارا يذكر أن أهرمزدا هو الذي جعله ملكًا وهو الذي مكّنه من حكم إمبراطوريته الشاسعة حكمًا قويًا عادلًا. وهو الذي مكّنه من الانتصار على أعدائه في حروبه العديدة. كذلك فعل ابنه أجزرسيس فقد كان ينسب كل أعماله المجيدة إلى فضل الإله أهرمزدا ورعايته.

اللّه وملائكته عند زرادشت

إن أهرمزدا هو الإله الأعظم عند زرادشت، وهو قديم أزلي وهو

وحده الذي لم يولد ولن يموت وهو علة العلل وليس له علية وهو المصدر الأول لجميع الموجودات. وهو روح الأرواح لا يرى ولا ينظر لأن الصفة الأساسية لما هو روحي أن لا يراه أحد، فهو وإن كان موجودًا في كل مكان إلا أنه لا يرى في أي مكان.

وأهرمزذا يعلم الماضي والحاضر والمستقبل وهو في علمه هذا ليس له ند. وهو وحده الذي يتصف بأنه العالم بكل شيء. وهو يعلم الغيب ودخائل النفوس إذ لا يخفي عليه سر من الأسرار.

وهو القدير على كل شيء على الرغم من مناهضة الشيطان له، وكل شيء في العالم له ما يسمو عليه إلا أهرمزدا ليس في العالم ما يسمو عليه. وهو لا يفتقر إلى شيء وكل شيء مفتقر إليه. وإن أقوى الناس يشعرون بضعفهم أمام هذا الإله. وهناك لحظات في حياة كل شخص يشعر فيها أن قوته قد خانته فهو يتطلع إلى قوة غير منظورة تشد من أزره وتقوي من نفسه، وأهرمزدا هو تلك القوة الخفيّة لأنه حامي كل شيء. وهو معين من لا معين له وراعي الفقراء والأغنياء على حد سواء ومفرج الهموم عن قلوب المهمومين ومانع الضر عن الناس.

وهو خالق الخلق كله والملائكة الأبرار، كما خلق الجنة والنار والشمس المشرقة والقمر المنير والنجوم اللامعة والهواء والماء والنار والأرض والشجر والدواب والمعادن والناس أجمعين. وهو الذي حرّك السموات ورفعها من غير عمد. وقد وهب لنا أعينًا لنرى بها وآذانًا لنسمع بها ولسانًا ناطقًا وأيدي لنمسك بها الأشياء وأرجلًا نمشي عليها.

وهو أب الإنسان خلقه وشرّفه على كافة المخلوقات بالعقل والبصيرة. ومن واجب الإنسان أن يطيع خالقه. وهو كالناسج قد نسج أشياء كثيرة مختلفة على نول الطبيعة. وهو المصدر الأبدي لجميع النعم والبركات. وأهرمزدا خير ممحض لا شر فيه وكل ما في العالم من خير منبعث منه. وهو منبع الخير كما هو مصدر كل مجد ونور وسعادة. وهو الواهب المعطي، يريد الخير دائمًا ولا يفكّر في الشر أبدًا. وإن بره وعطفه يشمل الخير والخبيث على السواء لأن إرادته خيّرة على الدوام وهو الرحمن الرحيم بعطف على هؤلاء الذين يتوجهون إليه في اليسر والعسر. وعلى المرء– كبيرًا كان أم صغيرًا– أن يفكر في اليوم مائة ألف مرة في تلك النعم الوفيرة التي أسبغها عليه أهرمزدا؛ لأن عدم الإقرار بالنعمة ونكران الجميل يؤديان بالمرء إلى مستقر العذاب الأليم.

وفي نهاية الزمن سوف يرد أهرمزدا إليه جميع مخلوقاته، بل إن الآثمين سوف لا يتركون في إثمهم إلى أبد الآبدين؛ لأن أهرمزدا يحزنه أن يرى خلقه يقاسون العذاب ولو إلى حين بسبب مسلكهم المشين.

إن الأنوار جميعًا تنبعث من أهرمزدا وهو الحق الأبدي في عالم الأخلاق والفضيلة. وقد ذكر فرفريوس الصوريي أن المجوس يرون أن جسم أهرمزدا يشبه النور وأن روحه شبيهة بالحق.

وأهرمزدا هو المشرع القدسي وهو بهذه الصفة القاضي الأسمى؛ فالمذنب الذي يعارضه، والآثم الذي يعيش بين الناي ويتحرك دون أن يدخل الإيمان قلبه، والثائر الذي يخرج على السلطة القدسية هؤلاء جميعًا

في حاجة إلى إصلاح وتهذيب، وأهرمزدا بصفته إله الرحمة من صفاته العفو ولكنه يعاقب أيضًا بصفته إله العدل. والإنسان في كل الأزمان فريسة هذا النضال الدائم بين الخير والشر، فهو إما أن يكون إلى جانب أهرمزدا وإما أن يقع فريسة لأهرمن إله الشر. والدين هو الذي يبصّر الإنسان ويهديه إلى طريق الخير ويقيم صلاته مع إله السموات على أسس سليمة قويمة وبذلك ينحو من الوقوع في حبائل الشيطان.

وزرادشت عندما يتحدث عن هذا الإله الأسمى لا يتحدث عنه باحترام وتبجيل فحسب، إنما يتحدث عنه أيضًا كما يتحدث المرء عن صديقه الحميم فهو يقول عن نفسه إنه «حبيب الله وصفيه» وإنه سيظل مادحًا لأهرمزدا ما دام فيه عرق ينبض.

هذه خلاصة أنظار زرادشت في طبيعة الإله الواحد القهار، وقد تضمنت فيما بعد الأديان السماوية الثلاث الكبرى: أي اليهودية والمسيحية والإسلام، هذه الصفات الإلهية جميعًا التي قال بها زرادشت وغدت من أسس علم اللاهوت عند اليهود والنصارى، وموضوع علم الكلام عند المتكلمين في الإسلام.

وهناك إلى جانب أهرمزدا ملائكته الأبرار وعددهم سبعة وهم يعرفون باسم «السبعة المقدسون الخالدون» خلقهم أهرمزدا ما بين ذكور وإناث. وتعرف السبعة الأيام الأولى من كل شهر بأسمائهم، وموطنهم السموات العلي. وقد جاء في بعض المصادر البهلوية المتأخرة أن هؤلاء الملائكة السبعة قد فاض الواحد منهم عن الآخر: أي الثاني عن الأول

والثالث عن الثاني وهكذا، وأن أهرمزدا قد خلق كبيرهم فقط المسمى فوهومناه.

وهؤلاء الملائكة خالدون لا يراهم أحد، وهم على جانب كبير من الحكمة والرحمة والبصيرة، يشع منهم النور الخاطف حتى إن زرادشت لم ير خياله على الأرض عندما كان في حضرتهم في السموات العلى.

وأفضال هؤلاء الملائكة على بني الإنسان كثيرة لا تعد. فهم الذين يتقبلون الصلوات والقرابين من المؤمنين الصالحين الذين يتلون صلاتهم بالشكل الصحيح المضبوط. وهم لا يتقبلون هذه الصلوات من غير الورعين الذين يتلونها بشكل خاطيء. وهم يجتمعون ثلاث مرات كل يوم في معابد النار لهداية هؤلاء المؤمنين الذين يترددون على هذه الأماكن المقدسة ورعايتهم. وهؤلاء الملائكة يحيطون بالإنسان لمراقبة فعاله. وهم موكلون برعاية المخلوقات الأرضية السبع من إنسان وحيوان ونار ومعادن وأرض وماء ونبات.

و«فوهومناه» هو أول هذه الملائكة، ومعناه الفكر الطيب وهو أسمى المخلوقات جميعًا فهو يلي أهرمزدا نفسه في المرتبة أي أنه كبير الملائكة وأسماهم.

الشر في تعاليم زرادشت

استشعر زرادشت في قرارة نفسه أن العناية الإلهية قد اختارته للجهاد إلى جانب الحق والعدل ضد الشر والفساد، ولدعوة الآخرين لمشاركته في هذا الجهاد. وأن أهرمن روح الشر هو سبب كل ما في هذا العالم من آثام

وشرور. وأن أهرمن هذا في قتال ونضال مع إله النور والحق منذ بدء الخليقة. وقد أطلع أهرمزدا نبيه زرادشت على جميع ما خلقه من خير وعدل وكيف أن أهرمن قام معارضًا له ومشاكسًا فخلق الشرور والآثام.

وروح الشر هذه لا تعمل بمفردها إنما تعاونها خلائق الشر الأخرى المعروفة باسم «ديفا» وهي جميعًا أشد أعداء أهرمزدا. وقد آثرت هذه الخلائق منذ باديء أمرها النية الخبيثة واندفعت بأمر من روح الشر أهرمن تغدر بالناس وتغرر بهم وتسلبهم الحياة الهانئة السعيدة والخلود الذي ينتظرهم في الحياة الآخرة. وإن الأقوام التي تنقاد إلى هذه الخلائق الشريرة هي أيضًا بذور للنية الخبيثة وللكذب والعجرفة. و«دروج» وهو كبير هذه الخلائق الشريرة يعمل على الدوام على مناهضة «آشا» روح الحق والصدق والعدل. فالحياة على هذا نضال مرير مستمر بين «آشا» و«دروج» أي بين الحق والباطل.

وإذا ما قام أهرمزدا إله النور بخلق أرض طيبة تغمرها السعادة والهناء قام أهرمن إله الشر بخلق بعض الطواعين والنوازل التي تعصف بالناس وتحيل سعادتهم إلى بؤس وشقاء. وعلى هذا النحو خلق البرد القارس والحر اللافح والكبرياء والجشع والإلحاد والكفر وغير ذلك من الآثام التي يتردي الناس فيها.

الثواب والعقاب عند زرادشت

أدرك زرادشت بثاقب بصره أن خيار الناس لا ينالون عادة في هذه الحياة الدنيا ما يستحقون من حسن الجزاء؛ لذلك فهم يتطلعون إلى

المستقبل لتعويض ما لحقهم من غبن وحرمان في هذه الحياة الدنيا. فقد جاء في كتاب الأبستاق «سوف تبتهج نفوس الخيرين في الحياة الثانية الخالدة، كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد». والمؤمن هو الذي يتطلع إلى مملكة العدل (المملكة السماوية) حيث يعمل الله على تعويض ما فاته في الحياة الدنيا من لذة وهناء.

وذكر زرادشت أن هذا العالم الدنيوي متصل بالعالم الآخر بجسر يسمى «جسر الانفصال». وعندما يمر الأشرار فوق هذا الجسر يرتجفون من الفزع والخوف، أما الأبرار الصالحون فيمرون عليه وهم مطمئنون إلى مصيرهم الذي ينتظرهم، ثم إن زرادشت نفسه يقود أتباعه المخلصين عندما يعبرون هذا الجسر.

وسوف تكون النار هي الحكم بين أفعال الناس الطيب منها والخبيث. ومن المعلوم أن هذه الفكرة لا تزال سائدة إلى اليوم بين كثير من الشعوب والقبائل. فقد جاء في كتاب الشاهنامة أنه في أيام شابور الثاني قدم آدربار نفسه للمحنة ليقحم مجادليه فصب النحاس المذاب على صدره فلم يمسه الضر. وكان أهل اليمن يحتكمون إلى النار فمن كان منهم صادقًا مخلصًا كانت النار بردًا وسلامًا عليه، ومن كان كاذبًا شريرًا أحرقته النار وأهلكته. ولا يزال الأعراب في مصر وغيرها يحتكمون إلى نار تسمى البشعة.

ويذكر زرادشت أن الأشرار سوف يخلدون في جهنم مأوى الكذبة ومن خبثت نياتهم، أما الأبرار الصالحون فيصعدون إلى السماء. والظاهر

أن زرادشت يجعل إلى جانب السماء وجهنم مكانًا ثالثًا لهؤلاء الذين تعادلت سيئاتهم مع حسناتهم.

ويتولى أهرمزدا بنفسه حساب الناس يوم الحساب، وأحيانًا يتولى ذلك نيابةً عنه أحد الملائكة المقربين إليه.

الديانة الزرادشتية بعد عهد زرادشت

يرجع الفضل في جمع تعاليم زرادشت وتضمينها كتاب الأبستاق إلى أردشير أول ملوك الساسانيين ورأس الأسرة الساسانية المالكة التي ظلت تحكم البلاد من عام ٢٢٤ إلى عام ٦٥٠ للميلاد. وأتم الملك شاهبور الثاني الذي حكم من عام ٣٠٩ إلى عام ٣٧٩ العمل الذي بدأه أردشير. وكان الملك شاهبور متحمسًا للديانة الزرادشتية عدوًا مبينًا للكفرة والملحدين.

وفي عام ٦٥٠ للميلاد اجتاحت الجيوش الإسلامية مملكة فارس وانتشر الإسلام في تلك الدولة وقضى على الديانات الأخرى التي كانت منتشرة هناك. وكان من أمر أتباع الديانة الزرادشتية أن اعتنق معظمهم الدين الإسلامي وظلت قلة منهم على الديانة الزرادشتية وهم الذين يعرفون باسم المجوس ولا يزيد عددهم في مملكة إيران على عشرة آلاف نسمة. وقد فر بعض هؤلاء المجوس إلى الهند من وجه الجيوش الإسلامية فكانوا أصل طائفة المجوس الموجودة في الهند إلى اليوم.

ويرى بعض العلماء أن المجوس في الهند لم يلجأوا إليها فرارًا من الفتح الإسلامي أو خشية الاضطهاد الديني، إنما ذهبوا إلى الهند بمحض إرادتهم سعيًا وراء التجارة.

وتؤكد الروايات أن هؤلاء المجوس قد نزلوا على شاطيء الكجرات بالهند عام ٧١٦ وقد حملوا معهم نيرانه المقدسة. ويبلغ عدد المجوس في الهند في الوقت الحاضر كائة ألف نسمة نصفهم تقريبًا في بمباي ولهم شأن يذكر في الحياة العامة في تلك البلاد على الرغم من قلة عددهم.

وظل مجوس الهند على صلات مع إخوانهم في فارس بل كانوا يلجأون إليهم في كل ما يتصل بشئون دينهم. على أن ذلك لا يمنع أنهم تأثروا كثيرًا بالديانة الهندوسية وبالعادات الشائعة في الهند، فأصبح زواج الأطفال أمرًا شائعًا بينهم وأصبح الكهّان منهم يؤلفون طبقةً خاصةً يتوارثون وظيفة الكهانة دون غيرهم من أبناء الطائفة.

وقد أثرى هؤلاء المجوس من اشتغالهم بالتجارة في الهند فاقتنوا العبيد ولقنوهم الديانة الزرادشتية. وصادف هذا العمل هوى في نفوس إخوانهم مجوس فارس، ولكنه لقى معارضة من جانب المفكرين من مجوس الهند الذين خشوا أن يؤدي هذا العمل إلى الهبوط بمركز المجوس الاجتماعي في الهند.

وعلى الرغم من تحمس المجوس لدينهم، فإنه من المتفق عليه أن حركة الركود والاضمحلال الديني الديني التي أصابت الهند في بداية القرن التاسع عشر قد شملت المجوس كذلك، فقد كان هؤلاء في ذلك الوقت لا يعنون إلا بجمع الثروة عن طريق التجارة أو غيرها من الطرق، أما ثقافتهم الدينية فقد ران عليها الشيء الكثير من الركود والاضمحلال، بل كان معظم كهانهم لا يدرون من أصول دينهم شيئًا.

وأخذت الديانة الزرادشتية في الانتعاش ثانية منذ منتصف القرن التاسع عشر وذلك بعد أن أقبل بعض علماء الإفرنج على دراسة هذه الديانة في كتبها ونصوصها الأصلية، وأذاعوا نتائج بحوثهم في كتب ونشرات كان لها أكبر الأثر في حركة الإصلاح الديني.

وقد نادى زعماء هذا الإصلاح بوجوب الرجوب في كل المسائل الدينية إلى الكتب الأصلية للديانة الزرادشتية وإلى تعاليم زرادشت نفسه. لقد عارض هؤلاء المصلحون تلاوة الصلوات الدينية الزرادشتية بتلك اللغة الفارسية اقديمة التي لا يفهمها أهل الجيل الحاضر، وطالبوا أن تؤدي هذه الصلوات إما باللغة الكجراتية وإما باللغة الإنجليزية، كما نهضوا لإصلاح العقيدة ذاتها وتخليصها من العناصر الدخيلة عليها. ومن الطبيعي أن يعارض المحافظون من رجال الدين المجوسي هذه الإصلاحات مخافة أن تؤدي إلى زوال سلطانهم فعملوا على محاربتها ما وسعهم إلى ذلك سبيلا.

الحياة الدينية عند مجوسي الهند

وظيفة الكهانة بين المجوس وراثية فهي محصورة في بعض الأسر. بيد أن الأسرة تفقد حقها في هذا الشرف الديني إذا ظلت ثلاثة أجيال دون أن تهيىء من بين أفرادها من يصلح لتبوُّو هذا المنصب الديني الخطير. ومعظم الكهنة من طبقة الهرابذة وهي أدنى طبقات هذا السلك الديني. ويمكن الهزبذ وهو في العشرين من عمره أن يعد نفسه لكي يصبح موبذا أي كاهنًا لمعبد النار. وهو لكي إلى هذا المنصب عليه أن يحفظ قسمًا طويلًا من كتاب الأبستاق وهو المعروف باسم «ياسنا» عن ظهر قلب وإن

لم يفهمه. وأعلى مرتبة في السلك الكهنوتي هي مرتبة الدستور أي الكاهن الأعلى.

وتحتاج الحياة الدينية عند طائفة المجوس إلى شيئين: معبد نار للأحياء وبرج صمت للأموات.

وأقدس معابد النار في الهند هي المعروفة باسم «آتش بهرام» وهناك ثمانية معابد من هذا النوع. ومعبد النار في حد ذاته بسيط لا يمتاز عن غيره من المعابد الهندية، غير أن تكاليف إقامة فيه باهظة؛ لأن نيران هذه المعابد مؤلفة من ست عشرة شعلة، كما أن رسامة هذه النار تحتاج إلى طقوس معقدة غاية التعقيد.

وتلى هذه المعابد في المرتبة المعابد التي تطلق عليها اسم «آتش أدران» ونيرانها مؤلفة من أربع شعل. أما النوع الثالث فهي المعابد المعروفة باسم «آتش داد كاه» وهي بيت عادي للنار.

ويتردد أهل التقى والورع من المجوس على هذه المعابد ويتلون صلاتهم أمام النيران المتأججة، ولكنهم لا يعبدونها كما يتوهم البعض، فالنار ليست موضوع عبادتهم ولكنها رمز دينهم لا غير.

وأموات المجوس في حاجة إلى ما يعرف باسم «برج الصمت»؛ لأن دفن الأموات عندهم أو إحراق جثثهم يدنس الأرض أو عنصر النار المقدس؛ لذلك يضعون جثث موتاهم فوق برج مستدير الشكل فتنقض عليها جوارح الطير فتنهشها نهشاً ولا تتركها إلا عظاماً مجردة من اللحم.

وبعد أيام يعود اللاحدون إلى البرج ويحملون هذه العظام ويلقونها في البئر الكبيرة إذ تكون عند ذلك قد فقدت قوتها على التدنيس أو التنجيس.

وتبدأ الحياة الدينية عند المجوسي- ذكراً كان أم أنثى- فيما بين السابعة والخامسة عشرة. إذ يقام لهذه المناسبة حفل ديني يلبس فيه الصبي أو الفتاة القميص والزنار بعد أن يتلو وراء الكاهن بعض الأدعية والصلوات بلغة لا يفهمهما معظم الذين يتلونها.

ولا يستطيع أحد أن يتكهن بمستقبل طائفة المجوس على وجه التحقيق، غير أنه لا توجد في الهند طائفة أخرى أكثر تقدمًا من المجوس ولا أكثر منهم استفادة من الثقافة الغربية. والمرأة المجوسية متعلمة وتتمتع بمثل ما تتمتع به المرأة الأوربية من حرية. وطائفة المجوس واسعة الثراء وبعض أفرادها من أغنى تجار الهند وأعظم أمرائها. وجمعيات البر والإحسان المجوسية في الهند أشهر من أن تذكر بل إن لها شهرة عالمية.

ويرجع الفضل في حركة الإصلاح الاجتماعي في الهند إلى طائفة المجوس. غير أن أفراد هذه الطائفة غير راضين اليوم عن الحالة التي وصل إليها الدين الزرادشتي. فالمثقفون منهم لا يحترمون الكهنة لجهل هؤلاء بأصول الدين، وهم في الوقت ذاته غير راضين عن تلاوة صلواتهم بلغة لا يعرفها اليوم إلا القليلون. وقد فقد المحافظون من رجال الدين المجوسي حماستهم الدينية القديمة وهم يرفضون قبول أي معتنق جديد لهذا الدين. ولسنا ندري كيف يستطيع المجوس الاحتفاظ بمركزهم الحالي؛ لأن معدل النسل عندهم آخذ في الهبوط لاستخدامهم الوسائل الحديثة لتحديد النسل.

وقد حدث أخيرًا أن تزوج فرد من أسرة تاتا المجوسية الشهيرة من سيدة فرنسية، ورغبت هذه السيدة اعتناق دين زوجها غير أن رجال الدين المحافظين رفضوا قبول طلبها. فرفعت هذه السيدة دعوى أمام المحاكم الهندية غير أن هذه المحاكم لم تبت برأي قاطع في هذه المسألة. فقد خشى رجال الدين أنهم إذا سمحوا للأجانب باعتناق هذا الدين فلا يلبث أن يهرع فقراء الهندوس إلى اعتناق المجوسية حتى يكون لهم نصيب في خيرات جمعيات البر والإحسان التي يستمتع بها فقراء المجوس.

أثر الزرادشتية في الدين اليهودي

لقد تأثر اليهود وهم الذين عرف عنهم ابتعادهم عن كل ما ليس من صميم العقائد الموسوية الصحيحة بالمعتقدات التي جاء بها زرادشت. فالباحث المحقق في الكتاب المقدس (العهد القديم) المتتبع لتسلسل الحوادث التاريخية التي تضمنتها أسفاره وإصحاحاته يتبين له بوضوح كيف استعار اليهود فكرة الشيطان عن الديانة الزرادشتية.

لقد سبُى في بابل عام ٥٨٦ قبل الميلاد أي قبل وفاة زرادشت بثلاث سنوات. ولا نجد في دينهم قبل السبى أية فكرة تمثل الشيطان. ثم قام الملك كورش المجوسي بعد ذلك بخمسين سنة بغزو بابل وفك أسر اليهود وإعادتهم إلى بلادهم، وظلوا طوال قرنين من الزمان يحكمهم ملوك على الدين الزرادشتي إلى أن جاء الإسكندر المقدوني.

وقد ظهرت في الديانة اليهودية فكرة الشيطان بعد السبى. ولما كان الدين الزرادشتي في ذلك الوقت يقول بوجود كبير بين خلائق الشر يعرف

باسم «الخصم» فإنا نجد أن اليهود بعد السبى يطلقون على روح الشر عندهم اسم «الشيطان» ومعناه في العبرية الخصم. وعلى هذا فليس أمامنا إلا استنتاجًا واحدًا وهو أن اليهود قد نقلوا هذه الفكرة عن الدين الزرادشتي.

وهذا بَيّنٌ أيضًا في الكتاب المقدس، إذ نجد في سفر صمويل الثاني بالإصحاح الرابع والعشرين الذي كتب قبل السبى أن يهوفا أرسل داود ليحصى الشعب، ثم أنزل بعد ذلك العقاب بالشعب لهذه الجريرة التي اقترفها داود بأن قتل سبعين ألفًا منهم بالطاعون.

وفي سفر الأخبار الأول، الإصحاح الحادي والعشرين، رواية متأخرة لهذا الأمر ذاته كتبت بعد السبى، وهي أن الشيطان هو الذي وسوس إلى داود بإحصاء الشعب.

ولقد كان اليهود قبل ذلك يدركون أن هناك تناقضًا في تلك الرواية أي في أن يكون يهرفاه (إله اليهود) هو الباعث على هذا الشر وهو في الوقت نفسه الذي يعاقب على اقترافه؛ لذلك رحب اليهود بفكرة الثنائية التي جاءت بها الديانة الزرادشتية فبرأت يهوفاه من هذا التناقض المحيّر للعقول السلمية.

أثر الزرادشتية في الدين المسيحي

إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس (العهد الجديد) نجد في بداية إنجيل متى (الإصحاح الثاني) قصة قديمة محببة إلى قلوب المسيحيين أجمعين تروي زيارة مجوس من الشرق لمهد الطفل عيسى «ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين

أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له».

ولقد هلل المسيحيون الأول لهذه الرواية ذاكرين أن كهنة هذا الدين الزرادشتي قد وضعوا بين أقدام هذا الطفل المسيح هدايا ثمينة من الذهب واللبان المر. ولعل ذلك كان تعبيرًا صادقًا لما يؤملونه في هذا الطفل بصفته أنه المنقذ للعالم الذي ينتظرونه منذ أمد طويل.

غير أن المسيحية قد أخذت من أتباع الديانة الزرادشتية أشياء أخرى أثمن وأغلى من الذهب والعطور.

لقد تفوه المسيح بعبارة وهو على الصليب مضمونها أنه يتوقع أن يكون مصيره الجنة. والجنة عند المجوس هي مأوى الصالحين بعد الموت وهي كلمة فارسية. أما الكلمة العبرية التي تدل على مأوى الصالحين والأشرار على السواء بعد الموت فهي شيول. ومن الخطأ أن مقول إن المكان الذي كان يعيش فيه آدم وحواء قبل الخطيئة هو الجنة ولكنه كان فردوسًا من الفراديس. ولم يكن اليهود يستعملون لفظة الجنة بمعنى أنها مأوى الأبرار الصالحين دون غيرهم إلا بعد أن استعاروها بمعناها الذي تعرف به الآن من الديانة الزرادشتية.

وقد دخل المسيحية أيضًا كثير من الآراء والمعتقدات الأخرة الخاصة بالديانة الزرادشتية عن طريق اليهود مثل البعث وقهر الشيطان آخر الأمر والاعتقاد في يوم الحساب وفيه يفصل بين الأعمال الطيب منها والخبيث، والاعتقاد في الأرواح الشريرة وفي الملائكة الحافظين من كل شر، ولم يكن في الدين اليهودي شيء من هذه المعتقدات قبل السبى بل وجدت كلها

بعد ذلك وانتقلت عن طريق اليهود إلى الدين المسيحي.

وكان لزيارة زرادشت للسموات– أو بوجه أصح للرؤى التي خُيل له فيها أنه صعد إلى السماء في صحبة كبير الملائكة– صداها في الآداب العالمية مثل الكوميديا الإلهية لدانتي، والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزي ملتون، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري وغير ذلك.

ولعل أجمل ما نختم به هذا الفصل أن نذكر نشيدًا من الأناشيد التي نظمها زرادشت نفسه وضمنها «الكاثا» أقدم أجزاء الأبستاق:

«بالحق تحرك قلبي

وبالنية الطيبة تلهم عقلي

وبعظمة القوى الروحية الكامنة في قرارة نفسي.

أسجد تمجيدًا لك يا إلهي، وعلى شفتي إلى الأبد تسبيحات حمدك، بل وعندما أقف ببابك آخر الأمر أسألك الرحمة والغفران سوف أسمع بوضوح الصدى العذب لصلواتي، منبعثًا من جنتك موطن الأناشيد».

بوذا

مولد بوذا

عقد الملك سودهدانا حاكم قبيلة ساكية بالهند في القرن السادس قبل الميلاد العزم على أن يختار شريكة حياته فوقع اختياره على مايا أجمل فتيات القبيلة.

وفي أمسية يوم من أيام الصيف بينما كانت هذه الملكة العروس متكئة على سريرها في غرفة نومها إذ أغفت إغفاءة قصيرة رأت فيها أن أربعة ملوك حملوها هي وسريرها وكل شيء في غرفة نومها إلى جبال هملايا، ثم وضعوا السرير تحت شجرة باسقة. وأقبلت عليها بعد ذلك أربع ملكات أدخلنها الحمام وبعد أن أستحمت ألبسنها أجمل الثياب وعطرنها بأطيب العطور، ثم انتقلن بها إلى فراش مقدس في منزل ذهبي فوق جبل من الفضة. وهبط فبل أبيض من فوق جبل من الذهب إلى هذا الجبل الفضي وفي خرطومه غصن من نبات البشنين ودخل المنزل ودار حول السرير ثلاث دورات ثم مس جانب الملكة الأيمن ودخل في رحمها.

ولما استيقظت الملكة من نومها أخبرت زوجها بهذه الرؤيا فاستدعى أربعة وستين حكيمًا من حكماء القبيلة وأصحاب الرأي فيها وأكرمهم غاية الإكرام وأغدق عليهم العطايا والهبات ثم سألهم تفسير هذه الرؤيا فقالوا له:

«لا ينشغل بالك أيها الملك السعيد لقد حملت الملكة بغلام وليس بأنثى. سوف يكون لك ولد وسوف يصبح هذا الولد ملكًا على البلاد إذا هو استقر في بيته، أما إذا غادر البيت وهام على وجهه في الأرض فسوف يصبح بوذا، أي: كاشفًا لنقاب الجهل عن وجه هذا العالم».

وتذكر الكتابات البوذية القديمة أنه قد حدث في مملكة سودهدانا في ذلك الوقت زلزال شديد زلزلت له الأرض كما حدثت عدة معجزات زخوارق إبراء الأعمى والأصم والأبكم كما خمدت النار في كل بيت من بيوتها.

كانت الملكة مايا عندما استكملت أشهر الحمل تمشي في إحدى حدائق القصر، فلما جاءها المخاض جلست تحت شجرة كبيرة وارفة بعد أن حجبها الخدم عن الأنظار بستار خاص. ولما أرادت الملكة أن تنهض حاولت الاستعانة بغصنٍ عالٍ من غصون هذه الشجرة فما كان من هذا الغصن إلا أن انحنى من تلقاء نفسه حتى قارب يدها، وما إن نهضت من جلستها حتى وضعت طفلها فتلقفه أربعة من الراهمة في شبكة نسجت خيوطها من أسلاك الذهب.

وعلى الرغم من أن المولود كان نظيف البدن لا يخالطه شيء من الدم وغيره إلا أن نبعين قد تفجرا أحدهما يفيض بالماء البارد والآخر بالماء الدافيء، فقام البراهمة بغسل الطفل وأمه ثم أسلموه إلى أربعة ملوك تلقوه على رداء مصنوع من جلد الظباء. ثم نقلوه على وسادة حريرية يحملها نفر من الأتباع.

وتذكر الأساطير البوذية أن هذا المولود قد هبَّ واقفًا فسجدت له الآلهة والناس على حد سواء. ثم اتجه ببصره إلى كل الجهات ليرى هل من أحد يشبهه على قيد الوجود. ولما لم يجد نظيرًا له خطأ سبع سنوات ناحية الشمال، ثم تتابع هذه الأسطورة العجيبة روايتها قائلةً:

وبينما كانت مها براهما يحمل في يده مظلة بيضاء يظلل بها هذا المولود ويحمل سوياما مروحة يروح بها عليه وفي أعقابهما رتل من الكائنات القدسية تحمل في أيديها غير ذلك من شارات الملك، إذ يقف بوذا بعد الخطوة السابعة ثم يهتف بصوت عال أشبه بزئير الأسد قائلًا: «إنني سيد هذا العالم».

وتذهب هذه الأساطير أيضًا إلى أنه قد ولد في اليوم الذي ولد فيه بوذا المرأة التي تزوجها فيما بعد كما ولد فيله وحصانه وسائق عربته، كذلك نبتت الشجرة التي تكشفت له تحتها أسرار الحياة.

وشاهد في ذلك اليوم ذاته زاهد شهير يدعي استيا في كبد السماء فوق صومعته بجبال الهملايا حفلا أقامته ملائكة السماء عرف أنه بمناسبة ولادة بوذا بين قبائل الساكية. فسعى هذا الزاهد إلى بيت سودهدانا لمشاهدة هذا المولود العظيم. ولما وقف في حضرة الملك سأله عن سبب مجيئه فقال له «أيها الملك لقد ولد لك طفل ولما كنت راغبًا في رؤيته فقد سعيت إلى بيتكم لهذا الغرض» فأجابه الملك «إن الطفل نائم أيها الحكيم الزاهد فانتظر قليلًا حتى يفيق من نومه» فقال الزاهد: «إن مثل هذه الكائنات العظيمة لا تنام طويلًا أيها الملك! إنها متيقظة بطبيعتها».

ولم يلبث أن حمل سودهدانا ولده بين ذراعيه وأراه للحكيم الزاهد فتهلل وجه هذا بشرًا وحبورًا ثم أشار إلى من حوله إلى أن الطفل يحمل العلامات الاثنتين والثلاثين التي تميز الرجل العظيم مثل الأصابع الطويل والأعقاب البارزة والأرساغ الناتئة، كما يزين فمه أربعون سنًا بيضاء ولسان كبير...!

على أن هذا الزاهد استيا لم يلبث أن انفجر باكيًا فلما سأله الملك عن ذلك أخبره أن هذا الطفل سوف يصل إلى درجة التنوير السامية وأنه سيهدى العالم إلى طريق الحق والصواب فهو يبكي لأن العمر سوف لا يمتد به ليصبح من تلاميذ هذا البوذا العظيم وأنصاره.

وكانت تظهر على هذا الطفل مخايل النبوغ والذكاء وهو لا يزال طفلًا صغيرًا. وقد استقر العزم على إلحاقه بأحد المعابد ليتثق فيه حسب العادة التي كانت متبعة في ذلك الوقت. وقد صحبته إلى هناك خالته التي حلت محل أمه بعد وفاتها وتزوجت من أبيه.

وقد سألها الطفل بصوت حنون إلى أين هي سائرة به، فلما أخبرته بوجهتها أنشدها ثلاثة أبيات من الشعر ذكر فيها أنه ليس في معبد من المعابد إله يدانيه. ثم قال لها إنه سوف يخضع لحكم التقاليد وسيذهب معها إلى المعبد، وما إن وصل إلى هناك حتى تهاوت جميع الأصنام التي في المعبد عند قدميه.

وذهب هذا الصبي بعد ذلك إلى المدرسة ليتعلم الأبجدية فسأل زملاءه الأطفال بسذاجة: أية أبجدية سوف يتعلمها فإنه يلم بجميع

الأبجديات وتلا عليهم دون مبالاة أو اكتراث أربعًا وستين أبجدية بما فيها الأبجدية الصينية.

وإذا كانت هذه المعجزات والأعاجيب قد بدت من هذا الطفل وهو في سني حياته الأولى فما بالك بالمعجزات الأخرى التي بدت منه عندما تقدم به العمر كما تذكر القصص والأساطير.

بوذا الحقيقي:

أخذ العلماء يمحصون الكتابات القديمة ويقارنون بين نسخها المختلفة ويزنون بميزان النقد الصحيح البريء تلك الروايات والأعاجيب التي تعج بها هذه الكتب، وأخيراً تكشفت لهم حقيقة هذا الحكيم الكبير، فإذا به رجل جذاب تهفو إليه النفوس لبساطة شخصيته وقوة أثرها ولكنه كان في الوقت ذاته جبار العقل له إرادة حديدية لا تقهر.

ولشخصية هذا الرجل من المتناقضات ما لكل شخصية من الشخصيات العالمية التي ظهرت في التاريخ. فأحيانًا تبدو منه أعمال تجعلك تسلكه في عداد المتصوفة الحالمين. وفي أحيان أخرى تسمع منه أقوالًا تستشف منها أنه فيلسوف من أتباع المذهب المادي. وهو يبدو لنا في بعض صفاته المميزة له رقيق الإحساس رقة النساء، ومع ذلك فإن مذهبه الفلسفي على جانب كبير من قوة المنطق.

ودلت البحوث المستفيضة التي قام بها العلماء بعد مقارنتهم الترجمات الحديثة للكتب البوذية باللغة البالية Pali (وهي اللغة الهندية التي كان يتحدث بها بوذا نفسه) بالمصادر السنسكريتية على أن هذا

الرجل قد ولد في بيت الملك بقبيلة ساكيه من عشيرة جوتاما التي انتشرت وعلا شأنها في البقعة التي إلى الشمال من بنارس الحالية بأميال قليلة، ومن ثم فإنه يطلق عليه أحيانًا اسم «سكياموني» أي حكيم قبائل الساكية، وقد غلب عليه اسم جوتاما ثم عرف بعد أن تكشفت له أسرار الحياة باسم جوماتا البوذا أي جوتا ما المستنير.

والظاهر أن اسمه الأصلي هو سدهارتا ومعنى هذا الاسم «الرجل الذي بلغ هدفه».

ولا نعرف إلا القليل عن حداثة بوذا، وكل ما نعرفه عنه أنه شب وترعرع وسط مظاهر الترف والنعيم. وقد ورد في بعض الكتابات الدينية البوذية حديث على لسان بوذا جاء فيه:

«لقد كنت مترفًا أيها النساك مترفًا كل الترف وبلغت الغاية في الترف. لقد حُفرتْ في قصر أبي البرك المغطاة بنبات البشنين، وغطيت واحدة منها بالبشنين الأزرق والثانية بالبشنين الأحمر والثالثة بالبشنين الأبيض. وكلها حفرت لمتعتي ولأجل خاطري. ولم أكن أستعمل إلا خشب الصندل من نتاج بنارس، وكانت ملابسي من القماش المصنوع في ذلك البلد وكذلك قماش أقمصتي ومجسداتي ومعاطفي. وكانت تظللني على الدوام مظلة بيضاء حتى لا أتعرض للبرد أو لحرارة الشمس أو للغبار أو للأعشاب أو الندى».

وكانت لي قصور ثلاثة واحد منها لفصل الشتاء والثاني لفصل الصيف والثالث للفصل المطير. وكنت أقضى في القصر المخصص للفصل

المطير أربعة أشهر تحف بي القيان والجواري، ولم أكن أغادر القصر طوال هذه الأشهر الأربعة».

وهناك قصص وأساطير أخرى تروي عن قوة بوذا الجسدية على الرغم من هذه الحياة الناعمة المترفة، منها أن السهم كان يخرج عن قوسه لمسافة عشرة أميال، وأنه ألقى ذات مرة بفيل من فوق الخندق المحيط بالمدينة.

وما إن بلغ بوذا السادسة عشرة من عمره حتى شيد له أبوه هذه القصور الثلاثة السالفة الذكر، ثم أخذ يتطلع إلى الفتاة التي تصلح لأن تكن زوجًا لابنه المدلل. غير أن جيرانه من الملوك والزعماء كانوا راغبين عن أن يزوجوا بناتهم لمثل هذا الشاب المترف مخافة أن تكون حياة الترف والخمول قد أفسدته فلم يعد صالحًا للحياة الزوجية الهانئة. ولا نعرف على التحقيق ما إذا كان بوذا قد تزوج في سن السادسة عشرة أو التاسعة عشرة أو العشرين، فالروايات تختلف في ذلك اختلافًا شديدًا.

والذي نستخلصه من الروايات الكثيرة التي تروي لنا أخباره أن بوذا قضى طفولته وشبابه في قصور أبيه وكان يعيش فيها عيشة الأمراء المنعمين المدلهين، وأنه أظهر في الوقت ذاته قوة بدنية هائلة وأنه تزوج من أميرة تدعى«ياسودارا» وعاش معها متنقلًا بين هذه القصور الثلاثة قبل أن تلد له ابنه «زهولا».

وقد عاش بوذا طوال هذه الفترة من حياته عيشة خيالية سعيدة لا يؤدي فيها عملًا من الأعمال. وكانت سهول الهند في ذلك الوقت خصبة

ممراعة، وكان أمراء الهنود الذين انحدروا من العشيرة الآرية القديمة على جانب كبير من الجاه والثراء، ابتنوا لأنفسهم القصور الجميلة الفسيحة وعاشوا فيها عيشة كلها لهو وترف يستمعون إلى القيان ويميلون حيث تميل بهم أهوائهم ونزعاتهم، ويمارسون أنواعًا مختلفة من الألعاب والمسابقات.

وتذكر الأساطير أن أباه قد حال بينه وبين معرفة أي شيء من مظاهر البؤس والفقر والألم المنتشرة خارج أسوار قصوره، فقد عاش بوذا في هذه القصور دون أن يعرف أن في العالم فقرًا وبؤسًا وألمًا وموتًا. لقد عمد أبوه إلى إرسال نفر من أتباعه قبل خروج بوذا الشاب للنزهة لإخلاء الطريق من كل مظهر تعافه النفس بحيث لا يقع نظر بوذا إلا على كل مفرج بهيج.

واتفق أن ركب الأمير عربته ذات يوم وهو في الثلاثين من عمره وخرج من أبواب القصر فشاهد رجلًا مسنًا أضناه العمل حتى ناءت أرجله الكليلة بحمل أعباء الحياة، فأشار إليه وسأل سائق عربته «تشنا» عن شأنه فأجاب تشنا بأن هذا العالم مليء بالمساكين ويستوى أن يزيد عددهم واحدًا أو ينقص واحدًا. فحزن الأمير الشاب حزنًا شديدًا ولم يقل شيئًا ثم قفل راجعًا إلى القصر وعاش مع زوجه وأبيه وأمه وحاول أن يكون سعيدًا. وترك الأمير القصر مرة أخرى بعد ذلك بقليل فصادف رجلًا يقاسي مرضًا وبيلًا فسأل سائق عربيه «تشنا» عن سبب آلامه فأجابه بأن العالم مليء بالمرضى ولا حيلة لنا في دفع هذا البلاء ولا ينبغي أن نهتم به كثيرًا. ولما سمع الأمير الشاب ذلك حزن حزنًا شديدًا ولكنه عاد ثانية إلى أهله

وعشيرته. ثم مر على ذلك أسابيع قلائل وفي ذات ليلة أمر سدهارتا بإعداد عربته كي يذهب بها إلى النهر للاستحمام. وفي الطريق أجفلت الخيل فجأة حين رأت جثة رجل متعفنة بشعة المنظر ملقاة في حفرة على جانب الطريق، ففزع الأمير الشاب لأنه لم يكن قد أبيح له من قبل أن يرى مثل هذه الأمور التافهة فالعالم مليء بالأموات كما أن قانون الحياة يقضي بأن ينتهي كل شيء إلى نهاية، فليس في العالم شيء خالد والقبر في انتظار الجميع ولا مهرب منه.

ولما عاد سدهارتا إلى قصره في هذا المساء استقبل بالموسيقى لأن زوجته وضعت في غيبته غلامًا فابتهج الناس لأنهم عرفوا آنئذ أنه قد قيض لهم ولي للعهد، فقرعوا الطبول احتفالًا بهذا الحادث، ولكن سدهارتا لم يشاركهم أفراحهم فقد تكشفت الحياة أمام ناظرية وعرف ما يكتنف حياة الإنسان من فواجع.. وكان مشهد الموت والعذاب يلاحقه كحلم مزعج.

كانت هذه المناظر السبب المباشر الذي جعل بوذا يغادر قصره ويخرج إلى هذا العالم الفسيح لنشر رسالته بين الناس. على أنه كانت هناك في واقع الأمر دوافع أخرى قد تكون خافية على هذا الأمير الشاب نفسه دفعته إلى هجر بيته وأسرته.

تعتري الشباب في سن معين رغبة جامحة في ترك ذويهم والانطلاق إلى رحاب هذا العالم الفسيح لمعرفة ما يضمه من عجائب ومخلوقات، وكان بوذا في ذلك الوقت قد بلغ الثلاثين من عمره واستكمل رجولته ونما عقله؛ وهو الذي بدرت منه آيات الذكاء والنبوغ (وهو صبي) لم يبلغ الحلم.

إن سن الثلاثين هي السن التي خرج فيها زرادشت لهداية الناس قبل ذلك بقرن من الزمان. وكان المسيح أيضًا في الثلاثين من عمره عندما طالع الناس بدينه الجديد.

ولعل أعجب ما في الأمر هو كيف ترك بوذا منزله وهجر أهله في نفس الأسبوع الذي وضعت فيه زوجه ابنه رهولا بعد زواج موفق سعيد دام عشر سنوات؟ إن المعروف عند علماء الاجتماع أن الرجل قبيل أن تلد زوجه أو بعد ذلك مباشرة تنتابه نزهة غريبة تدفعه إلى هجر بيته وزوجه. وليس ذلك الأمر مقصورًا على طبقة من الناس دون غيرها بل هي ظاهرة ملموسة لدى جميع طبقات الناس على حد سواء، ويمكن التأكد من ذلك بالأطلاع على قضايا الطلاق والظروف التي حدثت فيها.

وقد جرت العادة في بعض القبائل البدائية أن تحجز الزوج في كوخ عنوة خلال الفترة التي تكون فيها زوجه على وشك الوضع.. وهذا يدعونا إلى القول بأن القبائل البدائية نفسها تدرك هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة.

والأمر الثاني أن بوذا عندما أطل برأسه على غرفة زوجه وشاهدها هي ورضيعها على ضوء المصباح المنير بالزيت المعطر غارقين في أزهار الورد والياسمين، أدرك أن هذا الرضيع سوف يصبح عما قريب قيدًا يقيده بالمنزل لا يستطيع منه فكاكًا فأراد أن يتحلل من هذا القيد قبل أن يمكن منه.

كان القمر يتلألأ في تلك الليلة فهب سدهارتا من مرقده وأخذ يفكر في أشياء كثيرة ورأى أن السعادة لن تعود إليه قط إلا إذا وجد حلًا لمعضلة الوجود. وصح عزمه على أن يلتمس هذا الحل بعيدًا عن جميع

الأشخاص الذين يحبهم، فاتجه برفق إلى الغرفة التي ترقد فيها زوجه مع طفلها ثم نادى خادمه الأمين تشنا وطلب إليه أن يتبعه. وخرج الاثنان في ظلمة الليل أحدهما يبحث عن سكينة نفسه والآخر يخدم سيدًا محبوبًا في أمانة وإخلاص.

الأمير المتسول

سار سدهارتا بجواده طول الليل ووراءه خادمه تشنا ممسكًا بذيل الجواد، فلما تنفس الصباح كان أول عمل قام به أن اجتذ شعر رأسه بحد سيفه ونزع عنه ثيابه الملكية وأعاد الحصان وخصلة من شعره إلى أسرته مع خادمه الأمين تسنا. ثم ارتدى رداء أصفر اللون أصبح فيما بعد شعار البوذيين وغدا منذ تلك اللحظة ناسكًا جوَّالا لا يملك من حطام الدنيا سوى طاس وموسى وخياط وزنار وإناء يحفظ فيه الماء.

اتجه سدهارتا شطر المشرق وبعد مرحلة طويلة جاس فيها بلادًا واسعةً التقى بحكيمين من حكماء ذلك الوقت، ولكنهما قصرًا دون مساعدته على إدراك الحقيقة العليا. وكان سدهارتا يقضي معظم أيامه صائمًا يذيق بدنه ألوانًا مختلفة من الحرمان كي يذله ويخضعه لروحه العالية. وكان الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى ناسك مقدس شديد الزهد والتقشف. وقد تبعه في تلك الفترة من حياته نفر من المريدين لا يزيد عددهم على الخمسة.

وبعد مجاهدات ورياضات بدنية عنيفة أدرك سدهارتا أن ذلك الأسلوب من الحياة لا يوصله إلى معرفة الحقيقة ولا يكسبه فطنة وبصيرة، فلا بد إذًا من أن يكون هناك طريق آخر يوصل إلى تلك الغاية المنشودة

ويزيح النقاب عن عقولنا وأنفسنا. لذلك تجنب بوذا هذه الرياضات البدنية العنيفة التي يقصد من ورائها إذلال البدن وإماتة الشهوات لأنه أدرك أن العقل السليم لا يكون إلا في الجسم السليم.

اختار بوذا ذلك الطريق الذي أسماه الطريق الأوسط لضبط النفس، وكان يشير في أحاديثه إلى السنوات التي قضاها في تعذيب بدنه وإذلاله بقوله «إنها سنوات أنفقتها في محاولة عقد الهواء في أنشوطة». وما إن بدأ بوذا يعطي بدنه حقه من طعام الأرز واللبن الخائر حتى هجره تلاميذه الخمسة وقد أفزعهم ما أقبل عليه بوذا بعد مجاهداته ورياضاته السابقة. ولعل ما أحس به من خيبة لتخلي تلاميذه الخمسة عنه، أو لما أحس به من قوة جديدة سرت في بدنه نتيجة عودته إلى تناول الطعام، أو لكلا السببين معًا قد بعث في نفسه عزمة جديدة جبارة للكشف عن سر ألم الناس وبؤسهم في الحياة.

جلس بوذا متربعًا تحت شجرة تين، وعزم على أن يظل على جلسته هذه مهما طال به الأمد إلى أن تتكشف له الحقيقة وقد قال:

«فليجف جلدي وتضمر عضلاتي ويهن العظم مني كما يشاء، وقد يجف لحمي ويجمد الدم في عروقي ولكني سوف أبرح مجلسي هذا أن تتكشف لي الحقيقة وأحيط بأسرار الحياة».

وظل بوذا على هذا الحال أربعة أسابيع أو سبعة كما في بعض الروايات وأخيرًا بلغ بوذا في ليلة من الليالي مراده ومناه.

وفاة بوذا

عاش بوذا حتى بلغ الثمانين من عمره إذ توفي حوالي عام ٤٨٠ قبل الميلاد، في إحدى القرى الصغيرة المغمورة وحوله خمسمائة من أتباعه ومريديه. لقد انتاب بوذا المرض إبان الفصل المطير واشتد به المرض ولكنه تحامل على نفسه وضبط وعيه حتى يستطيع أن يودع تلاميذه وأتباعه قبل أن يودع الحياة كلها. وقد سأله بعض أتباعه أن يترك بعض الوصايا لتستنير بها الطائفة البوذية فأجابه بوذا قائلًا: «لقد بشرت بالحق دون أن أفرق بين العقيدة الظاهرة والأخرى المستورة، إن بوذا ليس لديه شيء أشبه بالقبضة المغلقة التي يستبقى بها المعلم بعض أشياء دون إعلانها، إذ لا أدري لم يستبقى المعلم لنفسه بعض التعاليم الخاصة بأي موضوع يتصل بنظام العقيدة دون إعلانها» ثم أردف قائلا:

«كونوا سراجًا تستضيء به نفوسكم ولا تركنوا لأي حمى خارج نفوسكم، واستمسكوا بالحق واجعلوه نبراسًا لكم، ولا تتطلعوا إلى أحد تجعلوه حمى ملاذًا لكم إلى جانب نفوسكم».

واستدعي بوذا تلامذته ومريديه قبل أن يجود بأنفاسه الأخيرة وسألهم هل من أحد منهم يشعر بشك أو ريبة في بوذا وتعاليمه، ولكنهم لاذوا جميعًا بالصمت العميق، وعند ذلك خاطبهم قائلًا:

«انظروا أيها الإخوان: إني أنصحكم قائلًا إن الفساد والانحلال كامنان في جميع الأشياء فاعملوا بجد ومثابرة على خلاص أنفسكم». وكانت هذه العبارة آخر ما تفوّه به بوذا.

وقد أحرقت جثة بوذا بعد وفاته واحتفظ بعظامه على أنها آثار مقدسة. وشيّد حول كل قطعة من هذه العظام مكان مقدس للعبادة نما على مر الأيام حتى أصبح هيكلًا ضخمًا من هياكل البوذية. لقد كانت عظام بوذا موضع التقديس والتبجيل في باديء الأمر ثم عبدت بعد ذلك وأقيمت المعابد للشخص الذي يدع الناس قط إلى عبادة إله من الآلهة، وهكذا أصبح الملحد إلهًا.

تعاليم بوذا

لم يترك بوذا وراءه تعاليم مكتوبة، كما أن شريعة بالي التي تتضمن هذه التعاليم لم يقدر لها التدوين إلا بعد وفاة بوذا بأمد طويل. ولا نستطيع أن نذكر إلى أي حد تمثل هذه الشريعة كلمات بوذا وتعاليمه التي قال بها، ومن العجيب أن بوذا قد ضمن تعاليمه عبارات غامضة أو صعبة الفهم لا يتوقع أن تصدر من صاحب رسالة عالمية عليه أن يخاطب الناس بلغة سهلة بسيطة يفهمها الناس كافة كما هو الحال مع موسى أو عيسى أو محمد أصحاب الديانات السماوية الكبرى.

غير أن هذا العجب قد يتلاشى إذا علمنا أن بوذا قد عاش في عصر عرف بالمحاورات والمساجلات الدينية العميقة، وأن كثيرًا من أقوال بوذا التي تبدو عليها مسحة من الحذلقة الفلسفية كانت تبدو طبيعية لدى أسماع الناس في ذلك الوقت، يضاف إلى ذلك أن بوذا نفسه لم يكن يشعر في قرارة نفسه بأنه صاحب رسالة دينية أو منشيء دين جديد. وغاية الأمر أنه كان مفكرًا مستنيرًا أراد أن يكشف لنفسه عن أسرار الحياة وأن يجد

الطريق إلى خلاص نفسه من آلام العالم ومتاعبه، ولما شعر أنه وفق إلى هذا الطريق أراد أن يرشد إليه غيره من طلاب الحق والمعرفة.

ومهما يكن من الأمر فإننا نستطيع أن نقول إن الشريعة «البالية» ترسم لنا الخطوط الرئيسية في تعاليم بوذا دون أن نقول إنها هي عين تعاليم بوذا وكلماته.

وأول ما نقوله في هذا الصدد هو أن تعاليم بوذا كانت عملية في حد ذاتها بعيدة كل البعد عن النظريات والتصورات الفلسفية الميتافيزيقية، إذ كان هدفه الوحيد من تعاليمه هو خلاص النفس من متاعب الحياة وآلامها. فقد جاء في نص قديم ينسب إليه هذه العبارة «لما كان المحيط الكبير ليس له إلا مذاق واحد هو الملح الأجاج، كذلك الحال مع هذه العقيدة ليس لها إلا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر».

كان بوذا يعمل جاهدًا على أن يصرف تلاميذه عن هذه الرغبة الجامحة التي تدفع المرء إلى السؤال عن مسائل ما وراء الطبيعة وهي مسائل لا تؤدي إلى هذا التحرر والخلاص الذي يشده. وقد كانت هذه المسائل تشغل بال المفكرين والفلاسفة في ذلك الوقت، مثل: هل العالم قديم أو حديث وهل هو أبدي أم له نهاية؟ وهل النفس خالدة أم غير خالدة؟ وهل الشخص الذي نال الخلاص في هذا العالم سوف يبعث ثانية بعد الممات؟ ونحو ذلك من المسائل.

وقد حدث أن طلب ناسك من بوذا أن يجيبه عن هذه الأسئلة فما كان من بوذا إلا أن نهره ذاكرًا له أن هذه الأسئلة ونحوها عبارة عن فلاة

أو غابة ملتفة أو قيد من القيود، وهي لا تؤدي إلى خلاص النفس من شهواتها بل تقترن عادة بالبؤس واليأس والحيرة. وعندما سأله الناس «وهل لبوذا بعض النظريات الخاصة به؟» أجابه «إن بوذا خلو من كل النظريات وأن الحقيقة الواحدة التي يعرفها بوذا هي أن المرء مصيره إلى الفناء، وهو إذا عرف ذلك عليه أن يحرر نفسه من التعلق بأي شيء، وبذلك يصل إلى حالة النرفانا أي السعادة التي ليس من ورائها سعادة».

وتذكر الروايات أيضًا أن أحد الحكام، وكان قد انضم إلى الطائفة البوذية، شعر بقلق شديد؛ لأن بوذا لم يجب عن تلك المسائل الفلسفية التي كانت تشغل بال المفكرين في ذلك الوقت، فذهب إلى بوذا وسأله ما إذا كان يعرف أجوبة هذه المسائل أم لا يعرفها فأجابه بوذا:-

«هل طلبت إليك الانضمام إلى طائفتي على شريطة أن أفسر لك وأجيب عن هذه المسائل؟» فأقر الحاكم أنه لم ينضم إلى الطائفة على هذا الشرط. ثم قال له بوذا: «إنك إذا كنت تعلق الانضمام إلى طائفتنا على معرفة أجوبة مثل هذه المسائل فإنك تكون أشبه بالرجل الأحمق السخيف يصيبه السهم المسموم فيأبى على الجراح أن ينزع السهم من جسده إلا بعد أن يخبره أي شخص هذا الذي أصابه بالسهم، وما هو نوع السهم والوتر؟. إن الحياة الدينية لا تقوم على بحث هذه العقائد الخاصة بخلود العالم أو بعث النفس بعد الممات لأن هذه المسائل وأشباهها لا تؤدي إلى خلاص النفس وراحتها وبلوغها حال النرفانا».

على هذا النحو أعلن بوذا للملأ أنه لا يعني بالنظريات والبحوث

العقلية ولكنه يسعى عن طريق العمل إلى شفاء النفوس من الأمراض التي تعتريها فتسبب لها الألم والبؤس والشقاء. فهو يشخص المرض في باديء الأمر ويعرف موطن الداء، ثم يبحث عن سببه وبعد ذلك يصف العلاج ثم يرسم السبيل الذي يضمن نجاح هذا العلاج. ومن ثم وضع بوذا أربع حقائق تتمشى وهذه الخطوات التي ذكرناها:

الحقيقة الأولى: المكابدة والألم

يذكر بوذا أن الولادة ألم والانحلال ألم والمرض ألم والموت ألم ووجود الأشياء التي نمقتها ألم وعدم الحصول على ما نرغب فيه ألم وبالاختصار إن التعلق بالوجود ألم.

هذه هي عوارض الأمراض التي تعترى النفوس فتحيل حياة المرء بؤسًا وشقاءً. وهو لكي يبرهن على حقارة هذا العالم يقول: على المرء أن يتدبر بدنه من قمة الرأس إلى أخمص القدم ويتأمل كل ما يحويه هذا البدن من أقذار وأدران. فإذا ما وقع نظر الإنسان على جثة في مقبرة من المقابر وقد انتفخت هذه الجثة وأسود لونها وامتلأت بالعفن الكريه فليقارن عند ذاك بدنه بهذه الجيفة البشعة. حقا إن تلك هي طبيعة البدن وجوهره وهذا هو مآل الإنسان ومنتهاه ولا مفر له من هذا المصير المحتوم.

ويرى بوذا أن هذه الحقيقة الأولى لا تحتاج إلى برهان فهي واضحة لكل ذي بصيرة وإدراك. وقد رماه البعض بالتشاؤم لهذا القول ولكنه يريد في الواقع أن يرسم للناس طريق الخلاص مما هي فيه من بؤس وشقاء وألم.

الحقيقة الثانية: سبب المكابدة والألم

يبحث بوذا بعد ذلك عن سبب هذا البؤس والشقاء والألم فيقول: إن سبب ذلك هو الرغبة الملحة في اللذة والتعلق بالوجود والشوق إلى السعادة والهناء.

الحقيقة الثالثة: وقف المكابدة والألم

يرى بوذا أن وقف المكابدة والألم يتم عن طريق منع هذه الرغبة منعًا تامًا، وهذا المنع في جوهره هو انتفاء كل شهوة والتخلي عن كل رغبة بل وتدميرها تدميرًا، وبذلك نصل إلى النرفانا وهي الحالة التي ينتفي فيها الألم والمكابدة انتفاءً تامًا.

وإليك أحد المزامير البوذية التي تتغنى بمباهج الخلاص من كل شهوة أو رغبة:

«فلنعش إذًا سعداءً أحرارًا من الجشع بين الجشعين، ولنظل بين القوم الجشعين أحرارًا من الجشع».

«ولنعش إذًا سعداء وإن كنا لا نملك شيئًا، سوف نكون أشبه بالآلهة المشرقة تقتات على السعادة».

«إن النصر يورث البغاء لأن المهزوم يكون غير سعيد».

«إن الشخص الذي ينصرف عن النصر والهزيمة هو الشخص القانع السعيد» «ليس هناك من نار أشد من الشهوة وليس هناك من رمية فاشلة مثل البغض» «وليس هناك من ألم مثل هذا البدن، وليست هناك سعادة أسمى من الراحة والسكون».

«الجوع أفتك الأمراض، والجسد أعظم الآلام فإذا ما عرف المرء ذلك حق المعرفة بلغ حال النرفانا أي السعادة العليا».

الحقيقة الرابعة: الطريق إلى منع المكابد والألم.

إن الطريق المؤدي إلى منع المكابدة والألم ينقسم إلى ثماني مراحل، وهي: الاعتقاد الصحيح والقصد الصحيح والقول الصحيح والفعل الصحيح ووسائل العيش الصحيحة والمعنى الصحيح والذكرة الصحيحة والتأمل الصحيح.

ويطلق بوذا على طريقه اسم الطريق الأوسط أي الوسط بين النقيضين، فهو مثلًا يوصي بتجنب الشهوات والملاذ وهو في الوقت ذاتى لا يرضى بالتقشف والزهد. والواقع أن كثيرًا من قوة تعاليم بوذا كامنةً في نبل مثاله الخلقي وملاءمته للواقع.وهو يبشر برسالة دون الإشارة إلى أية قوة عليا أو أي واجب ملزم.

الطائفة البوذية

لم يكن بوذا منشيء دين بالمعنى المعروف ولكنه كان صاحب طريقة وأسلوب في الحياة يؤدي إلى خلاص النفس من آلامها ومكابداتها. وهذه الطريقة مفتوحة أمام جميع هؤلاء الذين تحللوا من كل الروابط الدينية.

والدخول في هذه الطريقة يتم على مرحلتين: الأولى مرحلة التدريب أي المرحلة التي يمر بها المريد قبل أن يصبح راهبًا بوذيًا. ويقوم المريد في هذه المرحلة بحلق شعره وذقنه وارتداء الرداء الأصفر شعار البوذية ويعلن للملأ أنه احتمى بالبوذا وبتعاليمه وبطريقته.

والمرحلة الثانية لا تتم إلا أمام مجمع الطائفة. ولايسمح للمريد بالانتقال إلى هذه المرحلة الثانية إلا بعد التحقق من خلوه من الأمراض التي لا تؤهله لأن يكون عضوًا في هذه الطائفة البوذية. فإذا ما انتقل المريد إلى هذه المرحلة الثانية يبدأ في تنفيذ شروط الطائفة وتعاليمها وأهمها الامتنناع عن الاتصال الجنسي والابتعاد عن السرقة، كما على الراهب البوذي عدم الانغماس في تناول الأشربة المخمرة أو تناول الطعام في الأوقات المحرم فيها ذلك، كما عليه اللابتعاد عن الرقص والغناء مشاهدة الملاهي والامتناع عن تزيين البدن وتعطيره أو اتخاذ مضجع أو مقعد مرتفع أو عريض وعدم قبول مال من أحد.

وعلى الجملة فإن الانتساب إلى هذه الطائفة معناه الفقر التام، فالراهب عليه أن يخرج من بيته إلى حيث لا مأوى ولا بيت؛ لأن الملكية قيد واستعباد, ويعيش رهبان الطائفة البوذية في الأديرة والصوامع بعيدين عن زحمة الحياة ومفاتنها، ويسمح للنساء بالانخراط في سلك هذه الطائفة فيصبحن راهبات بوذيات يخضعن– مثل الرهبان– لأعنف القيود التي تكفل الطاعة والنظام بين أفراد هذه الطائفة. ولا نجد في البوذية أي نوع من أنواع التعبد والصلاة المألوفة في الأديان الأخرى، فالبوذي لا يبتهل إلى إله ما ولا يسأل أية قوة غير منظورة العون والتوفيق. وكل ما يحدث هو أن يجتمع رهبان كل إقليم من الأقاليم البوذية للصيام مرتين في الشهر مرة عند مطلع القمر الجديد والأخرى عندما يصبح القمر بدرًا. ويقوم أكبر الرهبان سنًّا وأقدمهم في سلك الطائفة بتلاوة بعض النصوص الأدبية البوذية وهي

نصوص يعدونها من القداسة بحيث لا يجوز لأحد غير الكهنة والرهبان سماعها. ويسأل هذا الراهب إخوانه ما إذا كان أحد منهم قد خرج على هذه القواعد والقوانين التي سبق أن أشرنا إليها فإذا اعترف أحد منهم أنه ارتكب خطيئة ما فإنه يفصل من سلك الرهبان أما إذا ظل الجميع سكوتًا فهذا دليل على طهارتهم وبراءتهم.

ويصوم الرهبان يومين آخرين في كل شهر أي أنهم يقسمون الشهر إلى أربعة أسابيع ويصومون يومًا كل أسبوع، كما أنهم يصومون يومًا أخر كل سنة عند ختام الفصل المطير، وهم يقيمون لهذه المناسبة حفلًا عامًا يضم رهبان الطائفة البوذية ويعملون في هذا الحفل على تسوية ما قد يكون بين الرهبان من منازعات وللتأكد من سلامة مسلك الرهبان وعدم مخالفتهم لقواعد الطائفة البوذية وأنظمتها، ولكن على الرغم من ذلك فإن المنازعات لا تبطل بين رهبان هذه الطائفة.

البوذية بعد بوذا

يقال إن بوذا قد عهد قبل وفاته بالإشراف على شئون الطائفة إلى كاسابا أحد مريديه المخلصين المقربين إليه، كما أن هذا الأخير قد اختار قبل وفاته خليفة له على الطائفة. والظاهر أنه لم يكن لهؤلاء الرؤساء الروحانيين سلطان قوي على أفراد الطائفة. وتذكر بعض الروايات أن أحد الرهبان قد ارتاح لموت بوذا؛ لأنهم كما قال «سيستطيعون فعل ما يريدون» لذلك عمد كاسابا على الفور بعد وفاة بوذا إلى اختيار خمسمائة راهب بوذي وطلب إليهم الاجتماع معًا خلال الفصل المطير من السنة

لتلاوة تعاليم بوذا والنظر في قواعد الطائفة ونظمها حتى يكونوا على بصيرة منها فلا يخرجوا عنها قيد أنملة.

ولم يؤدِ هذا الاجتماع إلى وقف ما بين الرهبان من منازعات في الري بل إن قسمًا كبيرًا منهم طلب في هذا الاجتماع التحلل من بعض القيود التي فرضها بوذا على رهبان الطائفة.

ووجدت البوذية بعد ذلك بقرن من الزمان مصلحًا ومدافعًا عنها في شخص الملك أزوكا الذي عمل على نشر المذهب البوذي بكل الوسائل الممكنة، وكان همه منصرفًا إلى جعل الهند موطن البوذية دولة يسودها العدل والصلاح. ويرجع إلى ذلك العهد وضع الشريعة البوذية المكتوبة، وقد انتشرت البوذية بعد ذلك في بورما وسيام وفي التبت، وبلغ هذا الدين منتهى قوته في الصين واليابان، وهو لا يكاد يوجد اليوم إلا في الدول المغولية فقد انعدم تقريبًا من بلاد الهند.

وقد انقسم أتباع بوذا إلى فئتين: فئة كبيرة العدد وهذه ابتعدت كثيرًا عن تقاليد بوذا الأصلية على مر الزمن، وهي تعبده الآن على أنه إله وتنتشر هذه الفئة الآن في الصين واليابان.

أما الفئة الثامية – وهي الأقل عددًا – فتنظر إلى بوذا على أنه صاحب أسلوب وطريقة خاصة في الحياة؛ لذلك هم يتجنبون المجادلات والمناقشات الدينية العقيمة التي لا تؤدي إلى خلاص النفس من الأدران التي تعلق بها. وتنتشر هذه الفئة في البلاد الأسيوية الجنوبية مثل بورما وسيام.

كتب الديانة البوذية

تتألف الكتب الدينية التي تضم شريعة بوذا من ثلاث مجاميع تعرف باسم السلال الثلاث. والسلة هي ذلك الوعاء الذي ينتقل من يد إلى أخرى محملا بشيء من الأشياء مثل السلة أو «المقطف» الذي يستخدمه البناءون أو الحفارون فهو ينتقل من يد إلى أخرى محملا بالمواد المختلفة. ومن ثم عرفت الكتب الدينية البوذية باسم السلال؛ لأنها تنتقل من معلم إلى آخر مشتملة على تعاليم هذه الطائفة البوذية.

وتعرف المجموعة الأولى باسم «سلة النظام» أو «الطريقة» وتشمل القواعد والنظم التي يسير عليها الرهبان على حياتهم.

وتعرف المجموعة الثانية باسم «سلة العظات» وتشمل تعاليم بوذا الأصلية مسلسلة وفق نظام خاص.

وتعرف المجموعة الثالثة باسم «سلة العقائد»، وتضم مسائل فلسفية مختلفة وهي المجموعة التي يتداولها أفراد الطائفة البوذية بوجه عام.

البوذية وأهل المشرق

لقد كان للبوذية أثر عميق في نفوس أهل المشرق، فقد عمد بوذا إلى مهاجمة الخرافات والأوهام والضلالات التي كانت شائعة في عهده بين أهل المشرق وأهمها عبادة الأرواح، أي جعل روح لكل كائن من الكائنات إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً. والظاهر أن بوذا كانت له صفة الواعظ المفوه الذي يستأثر بقلوب سامعيه. وقد جرت عادته على

توضيح عظاته بالقصص والأمثال نذكر منها ما يلي:

جاءته ذات يوم أمرأة وبين ذراعيها طفلها وقد اخترمته المنية وسألت بوذا أن يعطيها الدواء اذلي يعيد الحياة إلى طفلها الحبيب فقال لها بوذا: «لقد أحسنت صنعًا بمجيئك إليّ تسأليني الدواء لهذا الطفل الميت. عليك أن تذهبي إلى المدينة وتطرقي بيوت أهلها بيتًا بيتًا لتحصلي على بذر الخردل من بيت لم يمت من أهله أحد. ولم تمض هذه المرأة طويلًا في بحثها إذ أدركت ما يقصد إليه بوذا من هذا القول فذهبت إلى الجبانة لتوسد طفلها قبره وقد أخذت يده بين يديها وقالت:

«ولدي الصغير! لقد حسبت أن الموت قد عدا عليك وحدك ولكن الموت هو مصير الناس أجمعين» ثم لزمت بوذا وأصبحت من مريديه. ويرجع الفضل أيضًا في شيوع تعاليم بوذا بين الناس وتعلقهم بها إلى روحه الديمقراطي وحدبه على الفقراء والمساكين ووقوفه في صفوفهم ضد الأثرياء وأصحاب الجاه والسلطان. لقد كان بوذا كما ذكرنا من قبل نبيل المولد سليل الملوك والأمراء وأهل الجاه والثراء، ولكن نفسه عافت هذا المجد الزائل واتخذ حياة الفقر والزهد وكان يغضب ويثور على الأغنياء الذين يضطهدون الفقراء ويسومونهم سوء العذاب. ومن الطبيعي أن يلتف حوله الضعفاء والفقراء وهم سواد الشعب في كل أمة، كما التفوا بعد ذلك حول عيسى المسيح ثم حول محمد رسول الله من بعده.

وهو مع ذلك لا تأخذه هوادة في تعنيف الفقراء والمستضعفين الذين لا يسيرون في الطريق المستقيم، فقد جعل الأخلاق القويمة والسيرة الطاهرة

والذكر الحسن فوق الثروة والجاه، بل فوق كل الطقوس والشعائر، فالدين في رأيه هو المعاملة وليس هذه الطقوس والرسوم التي يصطنعها رجال الدين.

ومما زاد من تعلق الناس بهذا الدين الجديد الذي جاء به بوذا أنه بث في الطقوس والشعائر الدينية القائمة روحًا جديدًا خرج بها عن جمودها، كما أعطى للعادات والتقاليد الشائعة معنى خلقيًا جديدًا بعد أن كانت مجرد أفعال لا معنى لها.

تعاليم بوذا والفكر الحديث

هناك في تعاليم بوذا– على الرغم من كل ما ذكرناه– أشياء كثيرة لا تتمشى والفكر الحديث. هو كما قلنا من قبل يقلل من قيمة الحياة الإنسانية ويحتقر البدن الإنساني أشد الاحتقار وهو يشير إليه في أحاديثه بقوله:

«هذا الهيكل ذو الثقوب التسعة.

هذا الجسد القذر، هذه المقبرة الخاصة بعظام الموتى».

وكان بوذا ينظر إلى العلاقات والصلات العائلية نظرة ازدراء وعدم اكتراث، وكان أكثر من ذلك ينظر إلى المرأة على أنها كائن أقل قدرًا ومكانة من الرجل، وهذا على عكس المعاصرين الذين يقدرون المرأة حق قدرها وخاصة من أهل أوربا وأمريكا.

وقد حدث أن طلبت إليه خالته التي احتضنته وهو صغير بعد وفاة

أمة أن يقبلها بين مريديه وتلاميذه، ولكنه رفض طلبها وكرر هذا الرفض ثلاث مرات. وأخيرًا بعد إلحاح سمح لها على كره منه أن تلتحق بالطائفة البوذية على أن لا تتعدى أحد المراكز القليلة الأهمية من مراكز هذه الطائفة قائلاً بهذه المناسبة:

«والآن إن هذا النظام الديني سوف لا يعمر طويلًا، فكما أن البيوت إذا كثرت بها النساء وقل بها الرجال فإنه من السهل على اللصوص اقتحامها، كذلك الحال في العقائد فإنه إذا انضمت امرأة إلى طائفة من الطوائف الدينية فإن ذلك نذير بقرب زوالها».

وعندما كان بوذا على فراش الموت سأله تلميذه المقرب إليه أناندا قائلًا:

«كيف نتصرف أيها السيد إزاء النساء؟»

«لا تروهن يا أناندا» ولكن أناندا كان يدرك أن ذلك غير مستطاع فاستدرك قائلًا:

«وكيف نتصرف إذا وقع بصرنا عليهن؟»

«لا تحدوثوهن يا أناندا» ولكن هذا التلميذ المحبب إليه عاد قائلًا:

«وكي نتصرف إذا تحدثت إلينا واحدة منهن؟»

«لا تكترث ولا تلق بالا إلى ما تقول يا أناندا».

على أنه يجب علينا أن نعترف أن كثيرًا من آراء بوذا وتعاليمه كانت وليدة للبيئة التي نشأ فيها، غير أن ما أداه للفكر الإنساني أمر لا يمكن

إنكاره أو حصره. وكفاه فخرًا أنه علّم الناس كيف ينشدون السلام والراحة والطمأنينة عن طريق كبح جماح شهواتهم وأطماعهم.

البوذية في الوقت الحاضر

إن الناظر في أحوال البوذية ومركزها فيما بعد الحرب العالمية الثانية يرى أن التعاليم والأراء البوذية لم يصبها الوعن والاضمحلال في أية دولة من الدول البوذية مع استثناء الصين، بل إن نفوذها آخذ في الزيادة المطردة في بعض هذه الدول. على أن الوحدة بين أتباع هذا المذهب ما زالت هي الدولة، فليست هناك أي دلائل تدل على قيام نظام أو كتلة بوذية عالمية تكون قوية مؤثرة غي سياسة العالم ونظمه، وإن كان ضغط الاضطهادات الشيوعية في الشرق الأقصى قد يساعد على خلق مثل هذه القوة البوذية العالمية. وليس من السهل خضوع البوذية للأنظمة الدولية أو لأي نظام آخر، لأن اتجاهها ينحصر في حث الفرد ودفعه لكي يبلغ درجة التنوير والتثقيف، فهي لا تثبو إلى القوة الدنيوية أو الجاه والسلطان، بل إن البوذيين الذين يشتركون في أمور السياسة هم في نظر أفراد هذه الطائفة إنما يحطون من قدر لباس البوذية الذي يرتدونه.

وليس للبوذية رئيس أعلى أي ما يشبه البطريق أو البابا، وليس للمعبد البوذي في أية جهة ما- مع استثناء التبت- سلطة زمنية (دنيوية) وعلى ذلك فإن التعاون الدولي بين أفراد هذه الطائفة ينحصر في تبادل آراء البوذية وتعاليمها وفي أحسن الطرق المؤدية إلى نشر هذا المذهب. ولا يمنع هذا من أن تكون القوة الروحية لهذا المذهب ذات أثر متزايد على العالم في الوقت الحاضر.

زإذا استعرضنا اليوم الدول التي ينتشر فيها هذا المذهب نجد أن اليابان في طليعة هذه الدول، وفيها اليوم حركة انتعاش كبيرة للمذهب البوذي، على الرغم من المحاولات التي يبذلها الأمريكيون لحمل اليابانيين على اعتناق الدين المسيحي، قائلين إن المسيحية هير عون على بلوغ المزيد من الرخاء والرفاهية المادية.

أما في الصين فالبوذية آخذة في الاضمحلال في هذه البلاد الشاسعة شأنها شأن الأديان الأخرى هناك، وإن كان أثر الكونفشيوسية (مذهب كونفشيوس) لا يزال واضحًا في الصين غير أن الجيل الحديث هناك يهتم بالسياسة الغربية وبالمثل الغربية.

وإذا اتجهنا إلى كمبوديا هي ذلك القسم الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الأسيوية الذي تختلط فيه الأجناس والأديان، نجد أنه من الصعب إعطاء فكرة صحيحة عن هذا المذهب اليوذي هناك. فالأديان جميعًا في كمبوديا آخذة في الاضمحلال تحت ضغط الحروب الأهلية، على أننا نجد من ناحية أخرى أن عدد الجمعيات البوذية في تلك البلاد آخذ في الإزدياد وليس من شك أن ذلك إشباع لحاجة الأهالي إلى مثل هذه الجمعيات.

أما سيام فهي الدولة البوذية الوحيدة التي يسعى فيها رجال الطائفة إلى الاتصال بالأفكار والنزعات الحديثة. وقد كانت اللغة هي العقبة الكؤود أمام هذا الاتصال، غير أن البوذيين هناك أخذوا يقبلون على تعلم اللغة الإنجليزية، كما أن كثيرًا من المصنفات التي وضعت عن البوذية تترجم اليوم من اللغة السيامية وإليها. ثم إن زعماء هذه الطائفة يذيعون عن طريق

الرايو الأهلي هناك أحاديث أسبوعية عن البوذية وتعاليمها، يضاف إلى ذلك أن الاتحاد البوذي في سيام– وهو تحت الرعاية الملكية– يزداد قوةً ونفوذًا على مدى الأيام. والحالة في بورما معقدة بسبب الحروب الأهلية هناك، غير أن الخطر الشيوعي قد دفع الناس إلى التعلق بالطريقة البوذية في الحياة.

ولا تزال بورما في طليعة الدول البوذية على أساس أن هذا المذهب البوذي هو العامل الأكبر المؤثر في حياة البوذيين.

والحال شبية بذلك في جزيرة سيلان على الرغم من انضمام عدد كبير من المبرزين من أهل تلك الجزيرة إلى الكنيسة المسيحية. فالمسيحيون هناك يعملون منذ مدة طويلة على إنشاء المدارس النظامية، وأهل الجزيرة مضطرون إلى إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس لينالوا أحسن قسط من التعليم والتهذيب، غير أن شعورهم الحقيق لا يزال إلى جانب البوذية مع ميلهم أيضًا إلى الهندوسية، قد ازداد النشاط البوذي في سيلان بعد تحررها من الرقابة الأجنبية، وظهرت من جديد المشروعات الخاصة بنشر الثقافة البوذية بين ربوع هذه البلاد، وإعادة ترميم الآثار والمنشآت البوذية. وخلاصة القول إن الطائفة البوذية في سيلان في مركز عال وأن البوذية هناك مستكملة أسباب التقدم والنهوض، نستدل على ذلك من أنها استطاعت لفرط نشاطها هناك أن ترسل الإرساليات التبشيرية إلى جميع العالم البوذي.

أما الهند فقد خرجت عن نطاق الدول البوذية وذلك منذ القرن

الحادس عشر الميلادي. غير أن الجمعية البوذية التي تأسست في سيلان عام ١٨٩١، أخذت توالي نشاطها في طول البلاد الهندية وعرضها، وتعني بأمر الحجاج البوذيين الذين يفدون على الهند لزيارة البقاع المقدسة البوذية، وهي تقوم أيضًا بالدعوة إلى المذهب البوذي وتعمل على إنشاء المدارس والمكتبات والمعابد البوذية. ونشاطها مع تقدير الهندوس واحترامهم.

البوذية في بلاد الغرب

لا يعلم أحد متى ظهرت البوذية في الغرب لأول مرة. لقد قام نفر من علماء العالم الغربي بترجمة كتب المشرق القديمة إلى اللغات الأوربية الحية وكان من بينها الكتب البوذية. ويرجع الفضل لهؤلاء العلماء في معرفة أهل أوربا وأمريكا بالذهب البوذي.

وكانت البوذية حتى نهاية القرن التاسع عشر لا تعني سوى نفر من العلماء الغربيين دون غيرهم من الناس، ثم تغير الحال منذ مطلع القرن العشرين. ففي عام ١٩٠٦ قام أحد الإنجليز ممن اعتنقوا هذا المذهب البوذي يحاضر الناس في البوذية علانية بحدائق هايد بارك ولم يلبث أن أنشأ هو وبوذي انجليزي آخر الجمعية البوذية الإنجليزية، التي أخذت تزاول نشاطها في الجزر البريطانية بما فيها أيرلندا وقد أصدرت مجلة باسم المجلة البوذية Buddhiat Revieww لتكون لسان حالها.

وفي عام ١٩٢٥ وصلت إلى لندن بعثة من الجمعية البوذية العامة بسيلام لإنشاء فرع لهذه الجمعية في لندن، وقد لاقت هذه الجمعية

المساعدة التامة من الجمعية البوذية الإنجليزية، وظلت هاتان الجمعيتان تتعاونا معًا على نشر الدعوة البوذية في إنجلترا حتى الوقت الحاضر. وفي عام ١٩٢٩ أنشأت السيدة كونستانت لونسبري جمعية أصدقاء البوذية في باريس، Les amis du Bouddhisme وقد انضم إلى هذه الجمعية بعض المبرزين من أعضاء الهيئات الفرنسية المختلفة مثل السوربون.. على خلاف الحال في إنجلترا إذ كان دعامة الجمعيتين البوذيتين الإنجليزيتين من أهل الطبقة الوسطى في انجلترا.

وجمعية أصدقاء البوذية في باريس صلات وثيقة بالجمعيات البوذية في سيلان والهند الصينية، كما أن لها أفرعًا تمثلها في أنحاء مختلفة من أوربا، وهي تصدر مجلة بوذية مرة كل ثلاثة أشهر بعنوان الفكر البوذي La Pensée Bouddhique. ولعل أشهر شخصية بوذية بفرنسا في الوقت الحاضر هي مدام الكسندرا دافيد– نيل التي أصدرت جملة مؤلفات عن البوذية في بلاد التبت أكسبتها شهرة عالمية في هذا الموضوع.

وكانت البوذية موضوع دراسة واسعة في ألمانيا فيما بين الحربين الأخيرتين، وأنشأ الدكتور بول دالكه Dr. Paul Dahlke بالقرب من برلين أول معبد بوذي في البلاد الغربية. وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى خرج إلى الوجود عدة جمعيات وهيئات بوذية في البلاد التي تتحدث اللغة الألمانية. وبذلت محاولة كثيرة لتوثيق التعاون بين هذه الجمعيات الألمانية. وبذلت محاولة كثيرة لتوثيق التعاون بين هذه الجمعيات والهيئات.

ولقد قامت في الوقت ذاته جمعيات بوذية أخرى في كل من هولندا وبلجيكا وفنلندا والسويد وسويسرا. ولعل هذه الجمعيات البوذية كلها قد قامت على أنقاض ما دمرته الحرب العالمية الأخيرة؛ لأن من طبيعة الديانة البوذية أنها تواجه مشكلة الشر والآلام التي تنزل بالبشرية، وتعمل على حلها، فهي تشير إلى أسباب هذا الألم والمكابدة وتنتهي إلى معرفة السبب المباشر لهذا الألم والمكابدة، وهو الرغبة والطموح وتعمل على تدمير هذه الرغبة تدميرًا.

وقد لاقت البوذية في الولايات المتحدة حماسة بالغة، فهناك في أمريكا اليوم أكثر من مائة جمعية بوذية، والهمة مبذولة اليوم لتكوين مكتب عام للاتحاد البوذي الأمريكي لتوحيد نشاط هذه الجمعيات البوذية وتدعيمها.

وقبل أن نختتم هذا الفصل نذكر أنه في عام ١٩٤٥، شعرت الجمعية البوذية في إنجلترا بمسيس الحاجة إلى وضع مختصر عن قواعد البوذية وتعاليمها لا يزيد على ثلاث ورقات ونصف ورقة من الحجم الكبير. وقد تم بالفعل وضع هذا المختصر الذي يتضمن اثنتي عشرة قاعدة بوذية. وقد عرضت الجمعية هذا المختصر على مراكز البوذية في الدول البوذية فأقرته اليابان ثم من بعدها سيام والصين وبورما وسيلان، كما أقره مندوبون بوذيون من التبت. وفيما يلي هذا المختصر الذي يتضمن القواعد البوذية:

١- إن خلاص نفس أي فرد من الأفراد هي المهمة المباشرة بالنسبة لهذا الفرد. فإذا ما جرح شخص بسهم مسموم فالواجب عليه أن

لا يؤخر انتزاع هذا السهم من جسده انتظارًا لطلب تفصيلات عن الشخص الذي أصابه بهذا السهم، وعن طول السهم وكيفية صنعه. سوف يكون هناك متسع من الوقت لزيادة تفهم التعاليم البوذية خلال السير في الطريق المرسوم. فابدأ الآن بمواجهة الحياة كما هي، وتعلّم دائمًا عن طريق التجربة الشخصية المباشرة.

٢- إن الحقيقة الأولى في الوجود هي قانون التغير وعدم الدوام. إن كل شيء في الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل ومن الفكرة إلى الإمبراطورية من الإمبراطوريات يمر خلال دورة الوجود ذاتها، أعني: النمو والانحلال ثم الموت. والحياة وحدها هي الشئ المستمر وهي دائمًا تسعى إلى الإفصاح عن نفسها في صور جديدة. والحياة جسر، ومن ثم فلا تبني بيتًا فوق هذا الجسر. والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان فمن يتعلق بأية صورة من الصور مهما تكن جمال هذه الصورة فسوف يقاسي نتيجة لمقاومته لهذا التدفق والجريان.

٣- إن قانون التغير ينطبق بالمثل على النفس، فالفرد خلو من أي مبدأ خالد أو لا يتغير، والتجرد المطلق هو وحده الحقيقة النهائية التي لا يصيبها التغير، وكل صور الحياة بما فيها الإنسان هي مظاهر لهذه الحقيقة.. وليس هناك من إنسان يملك هذه الحياة التي تدب في أوصاله شأنه في ذلك شأن المصباح الكهربائي، فهو لا يملك ذلك التيار الكهربائي التي يبعث فيه الضوء.

٤- والعالم هو مظهر القانون، وكل معلول له علة، ونفس الإنسان

وطباعه هي مجموع أفكاره وأفعاله السابقة. "والكارمه" karma– ومعناها الفعل ورد الفعل– هي التي تتحكم في الوجود بأسره. والإنسان هو المبدع الوحيد لظروفه وأحواله وانعكاساته عليها، ولظروفه وأحواله المستقبلة، ولمصيره الأخير.

وهو يستطيع بالفكر الصائب والعمل الصحيح أن يظهر بالتدريج طبيعته الباطنة. وهذا العمل يستغرق عهودًا طويلة تشمل الحياة تلو الحياة على سطح الأرض، ولكن سوف تصل في النهاية كل صورة من صور الحياة إلى التنوير والتثقيف.

٥– الحياة واحدة غير منقسمة وإن كانت أشكالها المتغيرة على الدوام لا حصر لها وهي قابلة للفناء. وليس هناك في الحقيقة موت، وإن كان الموت مصير كل صورة من صور الحياة. إن الرحمة وليدة إدراك وحدة الحياة وفهمها. وقد وصفت الرحمة بأنها قانون القوانين وأنها التناسق الأبدي وأن الذي يشذ عن هذا التناسق سوف يصيبه الألم والمكابدة، كما أنه يؤخر من تنويره وتثقيفه.

٦– لما كانت الحياة واحدة وجب أن تكون مصلحة الجزء هي عين مصلحة الكل.. والإنسان لجهله يظن أنه يستطيع أن يكافح بنجاح في سبيل مصلحته الخاصة.. وهذا النشاط الأناني الموجه توجيهًا خاطئًا يؤدي إلى المكابدة والألم.. والإنسان يتعلم من مكابدته كيف يقلل من سبب هذه المكابدة ثم ينتهي به الأمر إلى التخلص من علة هذه المكابدة.. ولقد علمنا بوذا أربع حقائق نبيلة هي: ١– وجود الألم والمكابدة في كل مكان

٢- علة المكابدة وهي توجيه الرغبة توجيهًا خاطئًا ٣- علاج المكابدة وذلك بالتخلص من علتها ٤- الطريق ذو الثماني مراحل الموصل في النهاية إلى القضاء على الألم والمكابدة.

٧- إن هذا الطريق السالف الذكر يتألف من المراحل التالية:

الآراء الصحيحة، والأهداف الصحيحة، والقول الصحيح والأفعال الصحيحة والمعيشة الصحيحة، والمجهود الصحيح، والذاكرة الصحيحة، والتأمل الصحيح.. وهذه المراحل تؤدي إلى التنوير الكامل. ولما كانت البوذية طريقة في الحياة وليست مجرد نظرية فحسب، فإن ولوج هذا الطريق أمر جوهري لخلاص النفس "امتنع عن فعل الشر، وتعلم كيف تفعل الخير، وطهر قلبك" هذه هي تعاليم بوذا.

٨- إن الحقيقة شئ لا يمكن وصفه، وإن القول بإله له صفات معينة ليس ذلك هو الحقيقة النهائية، غير أن بوذا وهو الكائن الإنساني قد غدا الشخص الذي بلغ كمال التنوير.. وإن بلوغ حال النرفانا أمر ممكن بلوغه في هذه الحياة الدنيا.. إن الناس جميعًا وكل صور الحياة الأخرى تتضمن في ذاتها إمكانية التنوير ثم يصبح هذا التنوير بالفعل باتباع الخطوات السابقة.

٩- إن الطريق الأوسط يقع بين التنوير بالقوة والتنوير بالفعل، وهذا الطريق يبدأ من الرغبة وينتهى إلى حالة الطمأنينة والسلام. وهو طريق وسط بين المتناقضات، يتحاشى السائر فيه الأطراف النهائية.. وقد سار بوذا في هذا الطريق حتى نهايته.. والشئ الوحيد المطلوب الإيمان به في البوذية هو أنه ما دام بوذا المرشد قد سار في هذا الطريق فعلينا أن نسير

فيه.. ويجب أن يسير الناس جميعًا في هذا الطريق فلا يقتصر الحال على خيارهم فقط.. ولا بد من أن يتقدم القلب والعقل في الوقت ذاته إلى الأمام.

١٠- إن البوذية تهتم أشد الاهتمام بالتأمل والتركيز الباطني وهذا يؤدي مع مضي الزمن إلى تنمية الملكات الروحية.. فالحياة الذاتية هامة مثل الحياة المادية المحيطة بنا.. وإن فترات من الراحة والطمأنية للنشاط الباطني للمرء لأمر ضرورى لحياة متوازنة.. إن البوذي يجب عليه في كل الأوقات أن يكون حاضر الذهن رابط الجأش عزوفًا عن التعلق العقلي أو العاطفي بالمظاهر العابرة. وهذا التيقظ والانتباه للظروف- التي يدرك أنها من إبداعه- يساعده على أن يجعل انعكاساته بصدد هذه الظروف تحت رقابته وسيطرته.

١١- لقد قال بوذا: "اعمل على خلاص نفسك بجد ونشاط" ولا تعرف البوذية دعامة للحق سوى وجدان الشخص وبديهته.. وكل فرد يتحمل نتائج أفعاله الخاصة، وهو يدرك ذلك إبان قيامه بمساعدة زملائه على خلاص أنفسهم.. إن الصلاة والتوسل ببوذا أو بأى إله آخر لا يحول دون أن يتبع المعلول علته.. إن الرهبان البوذيين هم معلمون ومثل للناس، فهم لا يتدخلون بأى شكل من الأشكال بين الحقيقة والمرء.. والتسامح المطلق يجب أن يكون موجهًا إلى جميع الأديان والفلسفات؛ لأنه ليس لأي إنسان حق التدخل في رحلة جاره نحو الهدف.

١٢- إن البوذية ليست مذهبًا يتصف بالتشاؤم أو الهروب من

مواجهة الحقائق، ولا هو بالمذهب الذي ينكر وجود الله أو الروح، وإن كان يسبغ على هذه الألفاظ معانيه الخاصة.. بل إن البوذية على العكس من ذلك طريقة للتفكير، ودين من الأديان، وعلم روحى وأسلوب معقول في الحياة يتصف بأنه عملي ومحيط بكل شئ.

إن هذا المذهب قد أشبع الحاجات الروحية لما يقرب من تلث الجنس البشرى منذ أكثر من ألفين من السنين. وهو يروق في أعين أهل الغرب؛ لأنه خلو من العقائد المقررة، وهو يرضى ويقنع العقل والقلب معًا، وينص على الاعتماد على النفس وعلى التسامح مع جميع الآراء والمذاهب الأخرى. والمذهب البوذى علم ودين وفلسفة وعلم نفس وآداب للسلوك وفن.. وهو يبصر الإنسان بأنه هو مبدع حياته الحاضرة، وأنه هو الذي يرسم ويصمم مصيره ومستقبله.

كونفشيوس

من العجيب أنه لا يخاو كتاب في تاريخ الأديان من فصل هام عن مذهب كونفشيوس حكيم الصين الأشهر وتعاليمه.. وإن أقيمت الحجة في الوقت ذاته على أن الكونفشيوسية ليست دينًا وإنما هي منهج خلقي أو أسلوب من أساليب الحياة.

بل إن الذين يقولون إن الكونفشيوسية الحديثة هي دين من الأديان يصرون أيضًا على القول بأن التعاليم الأصلية لكونفشسوس لم تكن بأي حال من الدين في شئ.

والواقع أن الكونفشيوسية هي الآن وفي كل وقت من الأوقات دين من الأديان.. فقد كان كونفشيوس ذاته رجل دين تمثلت فيه جميع العقائد الصينية القديمة.. وكان أتباعه ومريدوه رجال دين بكل معانى هذه الكلمة، بل إن الكونفشيوسية كلما تقدم بها الزمن أمعنت في الدين.. ومهما يكن من الأمر فإن الكونفشيوسية– سواء أكانت فلسفة أم مذهبًا خلقيًا أم دينًا– فإنها قد أدت جميع الوظائف التي يرجى أن يؤديها دين من الأديان.

وإذا كان بعض الناس لا يرون أن الكونفشيوسية دين فمرد ذلك ضيق نظرتهم إلى الدين، والمعنى المقصود من هذه الكلمة.. فهم يقيسون كل دين على دينهم الخاص، فإذا كان مماثلًا في جوهره لدينهم فهو في نظرهم دين صحيح وإلا كان شيئًا آخر بعيدًا عن الدين.

والواقع أن كونفشيوس قد تجاهل في تعاليمه أشياء كثيرة من التي ينظر الناس إليها عادة على أنها من أسس الدين ومظاهره الرئيسية، ولم يكن ذلك منه استخفافًا بهذه المظاهر الدينية ولكنه كان يرى أنها ليست من جوهر الدين في شئ.. فهو مثلا لم يذكر في تعاليمه أي نوع من أنواع العبادة أي الصلاة المعروفة في الأديان المنزلة، ولم يرد في أحاديثه وتعاليمه ما يدل على ضرورة إقامة أماكن خاصة للعبادة، يؤمها الناس في أوقات معلومة للصلاة أو للابتهال والتوسل للكائن الأعلى الذي يعتقدون فيه.

الإنساني الأول

إن الدين الذي جاء به كونفشيوس وعمل على نشره وتطبيقه بين أمة الصين وثيق الصلة بهذا المذهب الجديد الذي ظهر بين أحرار الفكر المسيحي، والذي يطلق عليه أحيانًا اسم المذهب الإنساني Humanism والواقع أن كونفشيوس هو أول إنساني ظهر في العالم، وأساس تعاليمه أن لا يعتمد الإنسان على أي كائن علوي أو أية قوة غير منظورة يطلب منها العون والتوفيق في حياته، بل على المرء أن يصل إلى ما يتمناه من مراتب التقدم والسعادة عن طريق ذاته فحسب، وذلك يكون تثقيف نفسه وتهذيبها؛ لأن المعرفة الصحيحة هي وسيلة الحياة السعيدة الهانئة؛ لذلك كان كونفشيوس يحث الناس دائمًا على توسيع مداركهم سواء المتصل منها بالعالم الخارجي أو بذات نفوسهم.. والمعرفة الصحيحة هي التي تخلق الرجل السعيد الموفق وهي التي تخرج العائلة الصالحة والحكومة العادلة، وهي التي تؤدي بوجه عام إلى خلق عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام.

إن الذي يقول إن الكونفشيوسية ليست دينًا، وإن كوفشيوس لم يكن من بين زعماء الأديان في العالم إنما يذهب في قوله إلى عكس ما جاءت به الأديان السماوية.. فقد ورد في الإنجيل مثلًا "إن الرجل الذي يظهر بين الناس في مظهر المتدين ولا يعف لسانه عن إيذاء الغير إنما يخدع نفسه. ودينه عبث لا طائل من ورائه، وإن الدين الطاهر الخالص من الشوائب عند الله هو أن يزور المرء الأيتام والأرامل في كربهم وحزنهم والمتدين هو الذي يحفظ نفسه طاهر الذيل لم تلوثه أدران هذا العالم".

إن هذه الوصايا كونفشيوسية في جوهرها فقد أوصى حكيم الصين بصفة خاصة بحفظ اللسان عن الزلل كما بين أهمية الروابط العائلية وضرورة الحياة الطاهرة النقية المنزهة عن الشوائب.

وصفوة القول إن كونفشيوس كان من الذين يرون أن الدين هو المعاملة، وليس الدين جماع تلك الطقوس والشعائر التي ينظر إليها البعض على أنها أساس الدين وجوهره.. فالدين عند كونفشيوس هو مواساة اليتيم والبر بالفقراء والمعوزين وحفظ اللسان من النيل من أعراض الناس وكف اليد عن الاعتداء على الغير والاحتفاظ بالنفس طاهرة دون أن تدنسها الشرور والآثام.

وهناك في أمريكا اليوم اتجاه نحو التعاليم الكونفشيوسية، فإن أحرار الفكر من المسيحيين يرون أن أركان الدين الصحيح ليست في إقامة الصلاة، والقيام بالشعائر والطقوس الدينية المختلفة، أو الاعتقاد في إله واحد لا شريك له، أو في خلود النفس أو نحو ذلك من المعتقدات الدينية، إنما أساس الدين وجوهره هو المعاملة.

ويرى كثير من الناس اليوم أن الحكم العادل هو الدين الذي تتطلع إليه الإنسانية وذلك ما كان يدعو إليه كونفشيوس منذ أربعة وعشرين قرنًا خلت.. وكثيرًا ما ترد في تعاليم كونفشيوس هذه العبارة التي جمعت فأوعت: "ما لا تحب أن يصنع معك فلا تصنعه مع الآخرين".

إن كونفشيوس كان يرى أن السماء والحكومة والشعب هي القوى الثلاث السامية.. فالسماء هي التي تشرع القوانين والقواعد العامة التي تنظم الحياة الإنسانية، والحكومة تتلقى هذه القوانين والقواعد وتقوم على تنفيذها.. أما الشعب ومن يقوك بتنفيذ هذه القوانين فيعيشون وفقًا لنصوصها.. فليس هناك والحال هذه مجال لطائفة الكهنة ورجال الدين؛ لأن القوانين السماوية لا تقوم على أية عقيدة خافية أو مستورة؛ لأن هذه القوانين تشكل نفسها في صورة الظواهر الطبيعية والمجتمع الإنساني، وإن ما تتضمنه هذه القوانين قد توارثتها الأجيال جيلًا بعد جيل.. وليس هناك في الوقت ذاته مكان للحكومات أو الحكام الذين يفرضون قوانينهم ونظمهم الدينية الخاصة بهم.

وعلى هذا فإن مذهب كونفشيوس عبارة عن فحوى فضائل الأديان السماوية، وأفضل ما جاءت به الحكومات المثلى من نظم وقواعد مع تجنب أخطار كليهما.

وقد جعل كونفشيوس لطبقة المعلمين مكانًا ممتازًا في الدولة وهي الطبقة التي واجبها دراسة القوانين وصيانتها من كل عبث؛ وبذلك أنشأ كونفشيوس بين طبقة الحكام والشعب طبقة ثالثة مهمتها الجهاد في

جبهتين: الأولى– ضد الحكومة أي مراجعتها إذا ما خرجت عن حدود القوانين المرسومة، والثانية– جهاد مع الشعب لتيسر له لحصول على العلم والحكمة.. وكان من مميزات هذه الطبقة الجديدة أنها لم تنغمس قط في أي نشاط غير هذا النشاط المرسوم لها، وذلك على عكس أمثالهم من طبقة المعلمين والفلاسفة في الدول الغربية.

وقد نجح كونفشيوس في رفع هذه الطبقة إلى مكانة مموقة لها نفوذها وأثرها في الحياة الصينية، بل وغدت هي طبقة المعلمين والفلاسفة التي تعترف بها الدولة رسميًا.

والآن فلننظر كيف تير لكونفشيوس صنع هذا كله وعلى أي أساس أقام مذهبه وتعاليمه، على أن ذلك يدعونا أولًا إلى التحدث عن نشأة كونفشيوس وحياته وكيف كان يعلم الناس هذا المذهب الجديد

والد كونفشيوس

في عام ٥٥٢ قبل الميلاد أخذ القلق يساور جنديًا عجوزًا من أهل إقليم شانتونج من أعمال الصين إذ شعر بدنو أجله وليس له ولد.. وكانت الطقوس الجنائزية الصينية الصحيحة لا تتم على الوجه الأكمل إلا إذا كان للمتوفى ولد يقوم على هذه الطقوس.. وكان لهذا الجندي البالغ من العمر أكثر من سبعين عامًا تسع بنات، وكان له إلى جانبهن ولدان من إحدى المحظيات، ولكنه كان يريد له ابنًا شرعيًا تعترف به الجماعة؛ لذلك عقد العزم على أن يتخذ له زوجة أخرى غير زوجته الأولى التي لا تلد له إلا البنات.

كان هذا الرجل سليل أسرة صينية قديمة شريفة هي أسرة "كنج"، لذلك كانت رغبته أن يصهر إلى أسرة تعادل أسرته صيتًا وشرفًا.. فاتجهت أنظاره إلى أسرة "ين" وسأل أحد أفراد هذه الأسرة أن يزوجه إحدى بناته الثلاث.

فجمع هذا الرجل بناته وأوضح لهن مزايا الزواج من هذا الجندي المسن، وما قد يكون في ذلك من عيب أو نقص ثم سأل عن أية واحدة منهن ترغب في الزواج منه.. فصمتت الابنتان الكبيرتان عن الجواب، أما الابنة الصغري "شنج– تسى" فتقدمت نحو والدها وانحنت أمامه انحناءة طويلة تنطوي على الاحترام والتبجيل وقالت:

"لم تسألنا يا أبت؟ لك أن تقرر ما تراه في هذا الشأن".

"حسنًا إنك سوف تتزوجين هذا الرجل".

وبعد ذلك بعام واحد جلبت هذه الزوجة الصغيرة– التي لم تكن سنها تزيد في ذلك الوقت على ثمانية عشر عامًا– البهجة والسرور إلى قلب زوجها العجوز؛ لأنها انجبت له غلامًا ولا يزال إلى اليوم يعيش في إقليم شانتونج بالصين سلالة هذا الغلام من أبناء الجيلين الخامس والسبعين والسادس والسبعين، ولا يزال الناس هناك يبجلونهم ويحترمونهم أشد الاحترام لأنهم من سلالة كونفشيوس العظيم.

اسم الغلام

لم يكن هذا الغلام يدعى كونفشيوس، بل ولم يسمع أحدًا قط في حياته يناديه بهذا الاسم.. أما الاسم كونفشيوس فهو صياغة لاتينية لاسم

هذا الصبي، صاغها القساوسة اليسوعيون الذين كانوا يعيشون في الصين في القرن السادس عشر، وهم الذين أوصوا البابا في روما بأن يدرج اسم كونفشيوس في قائمة قديسي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.. كان هذا الغلام يسمى "كنج-فو-تسى" ومعنى هذه الكلمة "كنج السيد" أو "كنج المعلم" ومن ثم كانت الصيغة كونفشيوس هي أقرب الصيغ اللاتينية التي ارتاها اليسوعيون لهذا الاسم الصيني.

ومن الواضح أن هذا الاسم لم يطلق عليه عند ولادته، إنما أطلق عليه أول ما أطلق اسم "كن" أي "التل الصغير".. ولا ندري هل كانت هذه التسمية قد أطلقت عليه بسبب وجود تل صغير إلى جوار البقعة التي ولد فيها أم بسبب شكل رأسه الخاص الذي يشبه التل.. وقد أطلق عليه في الوقت ذاته اسم آخر هو "شنج نى" ومعنا تل نى الثاني أما تل نى الأول فهو أخوه غير الشقيق من محظية أبيه.. والواقع أن الاسم الحقيقي لهذا الغلام هو "شنج نى".

وقد ظهرت على هذا الغلام وهو في حداثته آيات النبوغ والذكاء، نستدل على ذلك من القصص والروايات التي يحكيها عنه تلاميذه ومريدوه.. فهم يقولون إن ملكًا تجلى لأمه شنج تسى وقال لها:

"سوف يكون لك غلام وسوف يكون أعقل الناس أجمعين" وهم يقولون أيضًا إن حيوانًا عجيبًا أشبه بالوعل أو وحيد القرن أو التنين قد وضع أمام "شنج- تسى" حجرًا كريمًا منقوشًا عليه هذه العبارة:

"سوف يكون غلامك ملكًا غير متوج"

الصين عند ولادة كونفشيوس

ولد كونفشيوس في منتصف القرن السادس قبل الميلاد وهو الوقت الذي ظهر فيه حزقيل ودانيال من أنبياء الله في فلسطين، وصولون المشرع وفيثاغورس الفيلسوف في اليونان وبوذا الحكيم في الهند.. وكانت الصين في ذلك العهد تمر بعهدها الإقطاعي إذ كان حكامها الإقطاعيون قد وطدوا أقدامهم في مدنهم المسورة الحصينة.. وكان كل منهم يحكم مدينة أو أكثر وينوب عنه في حكم المدن البعيدة أتباع خاضعون له.. وكان يعيش هؤلاء الحكماء والأمراء والأتباع في قصور فسيحة داخل أسوار مدنهم يحتقرون الفلاحين وعامة الشعب الذين لا يحفلون بشئ إلا بمأكلهم ومشربهم وليس لهم أي نصيب في الثقافة والمعرفة.. وكانت الثقافة السائدة بين أهل هذه القصور ثقافة دينية في مبناها وجوهرها.. فبلاط الحاكم الإقطاعي هو المكان المقدس وقبلة أهل الورع والدين. والضرائب التي تقدم إلى الحاكم الإقطاعي هي بمثابة القرابين التي تقدم على مذابح المعابد والهياكل الدينية.. وكلمة الحاكم هي الكلمة المقدسة الواجب على أفراد الشعب جميعًا طاعتها دون اعتراض أو مناقشة.

وكان الأتباع والأمراء ورجال الدولة بحكم اشتراكهم في حياة البلاط الصيني عليهم أن يكونوا على معرفة تامة بالطقوس والشعائر المرعية في البلاط، وأن يدركوا تمامًا ما تنطوى عليه جميع الرموز والإيماءات من دلالات ومعان.. وللوصول إلى هذه الغاية كان هؤلاء الأمراء والأتباع يحيطون أنفسهم بالمستشارين والمعلمين يتلقون عنهم أصول هذه الطقوس والشعائر ودلالاتها

المختلفة، ومن ثم نشأت من بين صغار النبلاء بالمدن طبقة خاصة أخذت على عاتقها دراسة هذه الطقوس والشعائر دراسة مستفيضة، لكي تقوم بخدمة الأمراء والأتباع في هذه الناحية الخاصة.. وأفراد هذه الطبقة هم من المعلمين والفلاسفة ورجال الأدب.. ثم نشأت بعد ذلك مدارس خاصة لإعداد صغار الأتباع ونحوهم للخدمة بالبلاط أو لتولي الخدمة العامة في الحكومة.. وبدأت هذه المدارس عملها متنقلة– أساتذة وطلابًا– من بلاط إلى آخر، ثم اتسعت برامجها مع مضى الزمن فأصبحت تشمل الفنون العسكرية والاقتصاد والفلك والقانون وعلم الأخلاق.. فغدت بذلك بمثابة جامعات متنقلة.. غير أن النزاع والنقاش ما لبث أن دب بين هذه المدارس وبعضها بسبب نفوذها وسلطانها على الأمراء وكبار رجال الحكم بعضا فكانت سببًا في قيام كثير من الفتن والقلاقل في البلاد بل أصبحت آخر الأمر مصدر قلق وانزعاج في ربوع الصين كلها.

ولم يكن غريبًا والحال على هذا المنوال أن ضربت الفوضى أطنابها في طول البلاد وعرضها، نستدل على ذلك من حادث وقع لكونفشيوس نفسه يبين لنا مدى ما كان يعانيه الشعب الصيني من عسف وظلم.. كان كونفشيوس يقوم هو وتلاميذه برحلة تعليمية في البلاد المجاورة لجبل تاى، بينما هو في طريقه سمع سيدة تصرخ وتستغيث.. فلما سألها عن سبب بكائها وعويلها في هذه الصحراء البلقع أجابت:

"لقد قتل نمر مفترس والد زوجي في هذه البقعة، كذلك افترس هذا النمر زوجى ثم افترس من بعده ولدى".

فسألها كونفشيوس

"ولماذا تقطنين هذا المكان القفر المهلك؟" فأجابته "لأنه لا يوجد هنا حاكم ظالم".

وعندما سمع كونفشيوس هذه الإجابة استدار نحو تلاميذه وقال لهم:

"اكتبوا عندكم أيها التلاميذ أن الحاكم الظالم أخطر من النمر المفترس".

حداثته وطلبه للعلم

لا نعرف إلا القليل عن حداثة كونفشيوس، ولكن لدينا أساطير كثيرة تشهد بطموح هذا الشاب وسعيه إلى طلب العلم والمعرفة.. وتذكر الروايات أن كونفشيوس كان يسهم وهو في الرابعة عشرة من عمره في تعليم أنداده من الصبيان؛ لأنه كان قد وعى وهو في هذه السن كل ما يستطيع المعلم تقينه للتلاميذ.

غير أن هذا لا يدعونا إلى القول بأن هذا الشاب قد انصرف كلية إلى تحصيل العلم دون شئ آخر من شئون الحياة، بل إنا نعلم مما وصل إلينا من تاريخ حياته أنه كان صيادًا ماهرًا كما أجاد قيادة المركبات على اختلاف أنواعها، وكان فوق ذلك كله موسيقيًا بارعًا.

وكان كونفشيوس يعمل في غير أوقات الدرس أعمالًا تدر عليه بعض المال يستعين به على تدبير شئون أسرته.. فقد توفى أبوه بعد مولده بثلاث سنوات فاضطر هذا الشاب– وهو بعد في مرحلة التعلم إلى كسب معاشه عن طريق العمل.

بل إن لحوم الطير والأسماك التي كان يصيدها بنفسه كانت تؤلف ركنًا هامًا من الأطعمة التي تقدم على مائدة أسرته.

والواقع أن كونفشيوس لم يدخر وسعًا في سبيل زيادة دخل أسرته والعمل على إسعادها بمختلف الوسائل.

كونفشيوس بين موظفي الحكومة

ما إن بلغ كونفشيوس السابعة عشرة من عمره حتى أسندت إليه إحدى الوظائف الحكومية في إقليم "لو" الذي كان يعيش فيه.. ولم تكن هذه الوظيفة بطبيعة الحال على جانب كبير من الأهمية ولكنها كانت وظيفة مشرفة.. لقد عهد إلى كونفشيوس أمر خزن الحبوب في هذا الإقليم والإشراف على بعض الأراضي العامة التابعة للحكومة.

وسرعان ما اكتسب احترام الناس له، وبلغ مكانة مرموقة في المجتمع على الظن أنه أظهر في عمله ذكاء ومقدرة لم تكن ملحوظة من قبل بين موظفي الحكومة.

وقد أفصح كونفشيوس لأول مرة وهو في هذه المرحلة من حياته عن فلسفة في الحياة، وذلك عندما عهد إليه تسوية نزاع قام بين جماعة من الرعاة المتنافسين، إذ جمعهم جميعًا وألقى عليهم درسًا فلسفيًا في سخافة التنازع على توافه الأمور.

وقد أظهر كونفشيوس في ذلك الوقت نزعة ترمى إلى وضع قواعد مبسطة لسلوك الإنسان.. فقد أدرك أن هؤلاء الرعاة المتنافسين وأشباههم

من سواد الشعب لا يدركون فلسفة التعاليم الصينية القديمة والمبادئ الخلقية التي تتضمنها الكتب الصينية القديمة التي عكف كونفشيوس على دراستها؛ لذلك رأى أن من واجبه تبسيط هذه الفلسفة والتعاليم، ثم استخلص منها في نهاية الأمر قاعدة بسيطة اتخذها مقياسًا للسلوك القويم في هذه الحياة.

كانت المهمة التي اضطلع بها كونفشيوس أشبه بالمهمة التي جابهت موسى قبل ذلك بسبعة قرون، غير أن الحل الذي جاء به كونفشيوس هو عين الحل الذي قال به عيسى بعد ذلك بستة قرون تقريبًا. فهو بدلًا من الوصايا العشر التي جاء بها موسى قدم لهؤلاء الرعاة المتخاصمين مبدأ بسيطًا شاملًا حيث قال لهم: "لا تصنع بالآخرين ما لا تحب أن يصنعوه معك".

وقد يكون في وضع هذا المبدأ الخلقى بصيغة النفى هذه ضعف من الناحية التربيبية، غير أن كونفشيوس استطاع مع ذلك أن يذهب مباشرة إلى لب المسألة وأن يكشف عن المبدأ الذي يصح أن يكون نبراسًا لسلوك الإنسان.

قال كونفشيوس بهذا المبدأ وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، ثم ردده كثيرًا بعد ذلك في تعاليمه التي قال بها عندما اكتملت رجولته وذاع صيته في بلاد الصين كلها.. ولم يكن تعلق كونفشيوس بالواجب واحترامه لحقوق غيره سببًا في احترام الناس له فحسب، بل كان أيضًا سببًا في ازدياد دخله وهذا قد مكنه من أن يتخذ له زوجة وهو في التاسعة عشرة من عمره.

كونفشيوس رب أسرة

لا نعرف شيئًا عن زوجة كونفشيوس، غير أنها أنجبت له ولدًا بعد عام واحد من زواجه منها أي في عام ٥٣١ قبل الميلاد.

ووصلت إلينا قصة تدلنا على المكانة الممتازة التي كان يتمتع بها كونفشيوس في نفوس معاصريه.. فقد ذهبت هذه القصة إلى أن حاكم ولاية "لو" الصغيرة التي يعيش فيها كونفشيوس قد أرسل إلى هذا الوالد الشاب المبتهج بمولد ابنه سمكتين من نوع الشبوط ليكونا بين ألوان الطعام الذي يقدم على مائدة أسرة كونفشيوس، في الحفل الذي يقام عادة لهذه المناسبة السعيدة.. وكان رد كونفشيوس على هذه الهدية أن أطلق على ولده اسم "لى" وهي الكلمة الصينية التي تدل على سمك الشبوط.

وفي ذلك الوقت الذي كان يحتفل فيه كونفشيوس بمولد ابنه كان بوذا في الهند يحتفل هو الآخر بستمية ولده "رهولا" .. وتذهب الروايات إلى أنه قد ولد لكونفشيوس أيضًا ابنتان، وذلك قبل أن تعصف الأحداث بحياته الزوجية السعيدة.. ولم تفصح التواريخ الصينية عن سبب اختلاف كونفشيون مع زوجته.

والراجح أن الطلاق قد وقع بينهما بعد أربع سنوات من زواجهما، وقد يكون ذلك بسبب طول حزن كونفشيوس على وفاة أمه.

لقد كانت العادة في الصين أن يعتزل الشاب الحياة مدة طويلة عند وفاة أحد والديه.. وكان كونفشيوس على الدوام مستمسكًا بتلك التقاليد والعادات الصينية القديمة؛ لذلك ظل شهورًا طويلة يتردد على قبر والدته

يتأمل في الحياة وفي الموت. وقد ظل على هذه الحال بسبعة وعشرين شهرًا.

ومن المعروف أن كونفشيوس كان في الرابعة والعشرين من عمره عندما توفيت أمه.. والواقع أن وفاتها قد تركت في نفسه أثرًا عميقًا لا يمحى، ولعل هذه الصدمة قد جعلته يتصرف تصرفًا قد ألحق الضرر بزوجته، فإنه قد انصرف كلية عنها خلال المدة التي أخذ فيها يتردد على قبر أمه– وهي تزيد على السنتين– إذ كان منصرفًا فبها إلى التأمل في أحداث الحياة والموت، ولا ندرى على التحقيق هل كان يعولها ماديًا خلال تلك العزلة أم تركها هي وأولادها نهبًا للأقدار.. وقد يكون كونفشيوس قد أهمل واجبات أمه بعض الشئ وهو في غمرة النشوة بالزواج ثم بإنجاب الأبناء.. فلما توفيت أمه أخذ ضميره يؤنبه على ما بدر منه فسلك هذا المسلك تكفيرًا عن خطئه، ولكنه أدى آخر الأمر إلى انفصاله عن زوجه.

كونفشيوس المعلم

عاد كونفشيوس إلى تلاميذه ومريديه بعد أن أتم أشهر الحداد على وفاة أمه، وأستأنف إلقاء دروسه التي كان قد بدأها بعد زواجه بقليل.. والواضح أن كونفشيوس كان من طائفة المعلمين الجوالين الذين ينتقلون من بلد إلى آخر وحولهم عدد من التلاميذ يستمعون إلى تعاليمهم التي توحى بها الأحداث والظروف التي تمر بهم أثناء تجوالهم، كما حدث عندما لقى المرأة التي افترس النمر أفراد أسرتها.. وليست لدينا معلومات نستدل منها على السبب الذي من أجله هجر كونفشيوس مركزه الحكومي واشتغل

بهذه المهنة.. ولعله يكون قد أدرك أثناء نظره في النزاع الذي شب بين الرعاة المتخاصمين أنه قد أوتي ملكة الوعظ والإقناع وتبسيط المعقد من الآراء والنظريات فآثر أن يشتغل بمهنة التدريس ليعلم الناس ويثقفهم وليقرب العويص من النظريات والآراء إلى أفهامهم وذلك بجعلها على هيئة وصايا وأمثال وقصص.

ونلاحظ أن الأنبياء والزعماء الدينيين قد اتجهوا جميعًا هذه الناحية من حيث تبسيط المعلومات والآراء وجعلها مستساغة لدى جمهور الناس.. وإذا كان نقيس مدى نجاحهم في هذا المضمار بعدد الناس الذين تأثروا بأقوالهم المبسطة، فإن كونفشيوس يكون له قصب السبق في هذا المضمار دون منازع.

كان كونفشيوس في الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين عندما أخذ يعلم الناس الحكمة وفلسفة الحياة بأسلوبه السهل الممتنع، وقد يكون ذلك هو السبب الذي من أجله افترق عن زوجته إذ لعلها اشتكت طول غيابه عن المنزل تاركًا جميع الأعباء المنزلية على عاتقها وحدها.. ولعل احتجاجها كان منصبًا بصفة خاصة على قلة ما يحصل عليه من المال من مهنة التدريس، إذا قيس الحال بما كان يحصل عليه عن طريق عمله في الحكومة مما جعل الحياة أمامها شاقة عسيرة.

وقد نقول من ناحية أخرى إن كونفشيوس قد شعر بأن الحياة الزوجية عبء ثقيل على رجل وهب حياته للوعظ والإرشاد والتنقل في رحاب العالم.. ومهما يكن من الأمر فإن تحول كونفشيوس من الوظيفة

الحكومية إلى الوعظ والإرشاد، وانفصاله عن زوجته وحداده على أمه، كلها أحداث قد وقعت في فترات متقاربة مما سببت لكونفشيوس أزمة نفسية عنيفة.

وليست هناك أية أدلة تاريخية تثبت أن كونفشيوس كان من نوع الأنبياء أو القديسين الذين تتجلى لهم الرؤى أو تهتف بهم الهواتف السماوية تأمرهم بدعوة الناس إلى الحق وسلوك الطريق المستقيم، إنما كان حكيما من الحكماء اطلع على كتب الأولين واستخلص زبدتها، وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لما تحويه هذه الكتب من وصايا وتعاليم.

اتخذ كونفشيوس في تعليمه الطريقة التي اتخذها أرسطو في اليونان بعد ذلك بقرنين من الزمان، فقد جرت عادته على التنقل من مكان إلى آخر وفي صحبته نفر من التلاميذ والمريدين يستوحون آراءه وتعاليمه في كل ما يعن لهم من المسائل.. ولم يكن هؤلاء التلاميذ يعبأون بطول المسافات التي يقطعونها في صحبة أستاذهم، وكان كونفشيوس ينتقل على عربة تجرها الثيران فكان من السهل على تلاميذه مسايرته سيرًا على الأقدام.

ومن الواضح كما ذكرنا من قبل أن الحوادث التي كانت تصادفهم عرضًا في طريقهم هي التي كانت توحي بموضوع الحديث.

وليس من شك أن الطريقة الحديثة في التربية والتعليم التي تذهب إلى أن إخراج التلاميذ من حجرات الدرس المغلقة وجعلهم يحتكون بالأحداث التي تقع في معترك الحياة هي أحسن وأجدى وسيلة في التربية والتعليم ترجع إلى طريقة كونفشيوس في تعليمه.

وكانت برامج الدروس التي يلقيها كونفشيوس على تلاميذه تشمل الموسيقى والشعر والتاريخ والآداب والتربية الوطنية والأخلاق، هذا إلى قليل من العلوم التي كانت معروفة إلى ذلك العهد.

ومما هو جدير بالملاحظة أن كونفشيوس قد استبعد من برامجه الدراسية الموضوعات المتصلة بتمجيد البطولة الجسمانية والأعجايب والثورات وخوارق الطبيعة.. والظاهر أنه لم يكن يتعرض على تلاميذه في قيامهم بالطقوس والرسوم الدينية التي كانت سائدة في عهده، ولكنه مع ذلك كان يتحاضى الدخول في مناقشات تتصل بالكائنات غير المنظورة.. ومن القواعد التربوية الفذة التي اتبعها كونفشيوس أنه كان يهتم كثيرًا بأن يكون على اتصال شخصي دائم بتلاميذه ليتعرف وأحوالهم الشخصية وما قد يعترضهم من صعاب وأزمات نفسية فيعمل وإياهم على حلها بميزان الحكمة والاعتدال.. وكان كونفشيوس لا يصد أي تلميذ عن حضور دروسه وتعاليمه إذ لاحت عليه مخايل الذكاء والنجابة، وكان كل ما يشترطه في التلميذ هو أن يتوافر فيه الجد والاجتهاد والأخلاق الفاضلة والرغبة الحق في التعلم.. وكان كونفشيوس يعنى عناية خاصة بالتربية الوطنية ونظام الحكم وما يجب أن تكون عليه الحكومة الصالحة والحكم الصالح؛ لذلك كان يؤثر بعنايته الخاصة كل تلميذ تظهر عليه مخايل النجابة في هذا الفن: أي فن الحكم.

وكانت أفعاله جميعًا مثالًا يحذيه تلاميذه، بل كانت عاملاً هامًا في تثقيفهم وإرشادهم.. ومما أثر عنه أنه كان شديد العطف على الحيوان حتى

إنه كان لا يتخذ إلا الملابس المصنوعة من الكتان على الرغم من انتشار الأقمشة الحريرية في الصين. وقد سأله أحد تلاميذه في ذلك فقال إنه لا يستبيح لنفسه أن يقتل دودة القز ليستولى على نسيجها الخاص بها ليصنع منه رداء له، كذلك كان لا يشرب اللبن؛ لأن اللبن من حق الرضيع من البهائم والسائمة.. وكان يفخر بأنه لم يستعمل قط شبكة لصيد السمك ولم يرم طائرًا بسهم، إلا إذا كان هذا الطائر محلقًا في الفضاء لكي يتيح له فرصة الهروب.. ولعل ذلك الآن من الآداب التي يتبعها أفاضل رجال الصيد والطراد والرياضة.

وعلى الرغم من أن كونفشيوس كان مدرسًا ناجحًا اكتسب شهرة فائقة في طول البلاد وعرضها إلا أنه لم يقنع بأن تكون هذه المهنة هي غايته من الحياة، بل كان يبغى من صميم فؤاده أن يتمكن في يوم من الأيام أن يلى منصبًا حكوميًا كبيرًا حتى يستطيع عن طريقه أن يطبق عمليًا ما يلقنه تلاميذه من دروس ونظريات خاصة بنظام الحكم.

والواقع أن تطلعه لمثل هذا المنصب الحكومي لم يكن لغرض مادي أو الحصول على الجاه والسلطان إنما كان يسعى إلى تدبير شئون الدولة تدبيرًا صحيحًا عادلًا، والعمل على إيجاد مجتمع لا تصنع فيه ولا رياء.

كونشيوس والفيلسوف لاؤ- تسى

كان يعيش في إحدى الولايات المجاورة لولاية "لو" التي يعيش فيها كونفشيوس حكيم صيني آخر ذائع الصيت يدعى لاؤ– تسى.. وكان هذا الحكيم لا يهتم هو الآخر بالآلهة والقوى الخفية غير المنظورة، إنما كان همه

تقويم الأخلاق ورسم طريق صحيح لسلوك الإنسان في حياته.. ويعرف الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من مؤلفات لاؤ- تسى باسم "كتاب الطريق إلى الفضيلة" أو "قانون العقل والفضيلة."

وهو عبارة عن رسالة في الأخلاق لا تحتوي على أي شئ من الدين كما يفهم الآن من هذه الكلمة.. وكانت تعاليم كونفشيوس لا تتفق وبعض مبادئ هذا المفكر الصيني الكبير، إذ كانت تتعارض وإياها في بعض النقاط الجوهرية.. فرأى كونفشيوس أن يذهب لزيارته عسى أن تؤدي هذه الزيارة إلى اكتساب بعض المعارف التي تكون قد غابت عنه.. وكان لاؤ- تسى قد بلغ في ذلك الوقت الرابعة والثمانين من عمره في حين أن كونفشيوس لم يكن تزيد سنه على أربعة وثلاثين عامًا.

ولسنا نعرف على التحقيق ما إذا كان لاؤ- تسى أي لاؤ المعلم وكونفشيوس قد جرى بينهما نقاش في أثناء تلك المقابلة. والذي نستخلصه من أوثق المصادر أن هذا الفيلسوف العجوز قد أسدى كثيرًا من النصائح لهذا الشاب الحكيم، وأن كونفشيوس قد انصرف من حضرة هذا الفيلسوف وهو معجب أشد الإعجاب بما سمعه منه من حكم ومواعظ.

ولقد كان الحكيم الصيني لاؤ- تسى المعاصر لكونفشيوس هو أول من قال إن الإنسان عليه أن يرد الإساءة بالإحسان.

وبهذا يكون قد سبق المسيح عليه السلام بأكثر من ستة قرون.

فقد جاء في تعاليمه ما يلي: "إنني طيب مع هؤلاء الذين هم طيبون معي.

وإنني طيب أيضًا مع هؤلاء الذين ليسوا طيبين معي.

وهكذا يتأتى أن يكون الجميع معًا طيبين".

وقال لاؤ- تسى أيضًا:

"ردوا الإساءة بالإحسان".

غير أن كونفشيوس لم يرض عن هذا المبدأ إذ كان من رأيه أن يكون الجزاء من جنس العمل فقد قال:

"رد الإساءة بالعدل ورد الإحسان بالإحسان".

وعلى هذا يمكن أن نضع لاؤ- تسى في صف واحد مع عيسى من حيث وحدة التعاليم التي جاء بها كل منهما، وأن نضع كونفشيوس في صف واحد مع موسى الذي جاء يبشر بشريعة العين بالعين والسن بالسن.

والواقع أن مذهب كونفشيوس في هذه الناحية لم يكن قائمًا على الحقد أو حب الانتقام، بل كان يرتكز على فكرة جوهرية وهي أن الأخلاق الشخصية أي معاملة الناس بعضهم لبعض لا يجب أن تكون أسمى من معاملة الحكومة لرعاياها؛ لأنه إذا كانت الحكومة تحسن أو تتغاضى عمن يسئ إلى البلاد أو إلى القائمين بالحكم فإن مآل ذلك إلى الفوضى وسوء الحال، أما إذا حاسبتهم على أفعالهم حسابًا عادلًا فإن الأمور تستقيم وتستطيع الحكومة القيام بواجباتها على الوجه الأكمل.

والواقع أن مذهب كونفشيوس كان أكثر صلاحية لأحوال الصين في ذلك العهد، إذ كانت البلاد مهددة بالفتن والقلاقل فكان على الحاكم الحصيف أن يستعمل الشدة المشوبة بالعدل في مواضع الشدة ويستعمل الإحسان والعدل حيث يستحب منه ذلك.

وتذكر بعض الروايات من ناحية أخرى أن لاؤ- تسى قد انتقد كونفشيوس أثناء مقابلته له؛ لأن كونفشيوس كان يهتم كما ذكرنا من قبل بالتقاليد القديمة التي أثرت عن حكماء الصين الأقدمين، وكان يعمل جهده على إحياء هذه التقاليد، وكان يأكل من ناحية أخرى أن يجد عند لاؤ- تسى ما يعينه على إدراكها إدراكًا صحيحًا ولكن هذا الفيلسوف العجوز، قال له:

"إن الرجال الذين تتحدث عنهم قد ماتوا واستحالت عظامهم إلى تراب فاصرف النظر عن مسعاك لإحياء سنن الآباء والأجداد".

عاد كونفشيوس أدراجه بعد زيارته للاؤ- تسى وأخذ يتدبر كلمات هذا الفيلسوف المسن.. وقد قال لتلاميذه وهو في طريقه إلى بلده: "إني أعرف كيف يطير الطير وكيف تسبح الأسماك وكيف يجرى الحيوان، ولكني لا أستطيع أن أعرف كيف يعتلى هذا التنين متن الرياح ويطير في السماء. لقد رأيت لاؤ- تسى وإني لا أستطيع مقارنته إلا بالتنين".

قد يكون هذا القول مدحًا في لاؤ- تسى أو سخرية منه ومن فلسفته المثالية.. ومهما يكن من الأمر فإن لاؤ- تسى قد لاح في عين كونفشيوس أشبه شئ بالحالم المحلق في سماء تأملاته، وأن كونفشيوس قد

لاح في عين لاؤ- تسى وكأنه الفضولى الذي يتدخل في شئون الناس ويدس أنفه في كل ما لا يعنيه.

والواقع أن كلا من هذين الحكيمين كان له أكبر الأثر في نفوس أهل الصين وفي توجيه أفكارهم وإن اختلف بعضهما عن بعض في أغراضهما ووسائلهما وفي طريقة حياتهما ونظرتهما إلى الحياة.

كونفشيوس في مناصب الحكم

ظل كو نفشيوس بعد مقابلته للفيلسوف لاؤ-تسى يشتغل بمهنة التدريس سبعة عشر عامًا أخرى. وعندما بلغ الخمسين من عمره لاحت له الفرصة التي كان يترقبها منذ أمد طويل، إذ عُين في عام ٥٠٠ قبل الميلاد قاضيًا بولاية "لو" مسقط رأسه فأظهر في عمله هذا مقدرةً فائقةً وعدلًا مطلقًا بحيث لهجت الألسنة بالثناء عليه؛ وذلك قد دفع ولاة الأمور إلى إسناد منصب وزير الأشغال إليه ثم منصب وزير العدل.

ومن الواضح أن آراء كونفشيوس كانت عملية بعيدة عن النظريات الميتافيزيقية التي لا يمكن تحقيقها، ومن ثم صادف عمله في المناصب الحكومية التي تولاها نجاحًا ملحوظًا ظهر أثره بادئ الأمر في ولاية "لو" ثم تعدى ذلك إلى الولايات الصينية المجاورة.. وقد استتب الأمن والنظام في البلاد واحترم الناس القانون منذ أن اعتلى كونفشيوس منصب الوزارة.. وكان هم الحكومة الأكبر قبل عهده هو جمع الضرائب بمختلف الوسائل ولو جاوزت هذه الوسائل حدود العدل والرحمة، فكان أن غير كونفشيوس من ذلك وذكر أن الحكومة ليست جابية للأموال إنما هي هادية للحق

وللصراط المستقيم، وأن على كل موظف في الدولة أن يقوم بواجبه على الوجه الأكمل وأن يكون رائده العدل والاستقامة؛ فبذلك تستقيم الأمور وينال كل ذى حق حقه.

ولم يستدم كونفشيوس في مناصبه الحكومية أكثر من أربع سنوات، إذ أخذ الحسد يدب في قلوب حكام الولايات المتجاورة لما رأوه من تقدم ولاية "لو" واستتباب الأمن والنظام فيها نتيجة لحكم كونفشيوس العادل.. فعملوا على بث الشقاق بين دوق "لو" وبين كونشيوس وزير عدله.. وكان من أمرهم أن أرسلوا إلى الدوق هدية تتألف من ثماني فتيات جميلات ممشوقات يتقن الرقص والغناء وجميع فنون المجون والخلاعة.. وكان أعداؤه يعرفون فيه الميل إلى النساء والانقياد إليهن؛ لذلك ابتهج لهذه الهدية أشد الابتهاج وانصرف عن كونفشيوس ومشروعاته في الإصلاح والعدل بين الناس.. وقد حاول كونفشيوس أن يقابل الدوق ليثنيه عن هذا المسلك الشائن بعد أن رأى انغماسه في اللهو والمجون مع أولئك الراقصات، ولكنه لم يتمكن من مقابلته فقد هدم هؤلاء الفتيات برقصهن وغنائهن ما بناه كونفسيوس في أربع سنوات من العمل المتواصل؛ لذلك لم يجب بدًا من اعتزال الخدمة الحكومية والبحث عن مكان آخر يكون الحاكم فيه رجلاً فاضلاً عادلًا يستطيع أن يعاونه في تنفيذ مشروعاته وتعاليمه، ولكنه باء بالفشل بعد أن أمضى في هذا البحث ثلاثة عشر عامًا ذهبت دون جدوى.

وأخيرًا استدعى كونفشيوس إلى وطنه لا ليحكم بل ليمضى بقية حياته بين تلاميذه ومريديه.. وقد اشتغل كونفشيوس خلال هذه البقية

الباقية من عمره– أي من سن الثمانية والستين حتى وفاته في الثانية والسبعين– في مراجعة الكتب الصينية القديمة التي تتضمن علوم الأولين.

الكتب الصينية القديمة

هناك تسعة كتب صينية قديمة يرتبط اسم كونفشيوس بها أشد الارتباط، وتعرف خمسة كتب منها باسم "كنج" أما الأربعة الباقية فتعرف باسم "شو". والكتب المعروفة باسم منج هي:

١– "شوكنج" أي كتاب الوثائق التاريخية.

٢– "شى كنج" أي كتاب الأشعار القديمة.

٣– "يي كنج" أي قانون التغير.

٤– "لى كى كنج" أي كتاب الشعائر والطقوس القديمة.

٥– "شن شوكنج" أي كتاب الربيع والخريف.

والرأى الغالب أن كونفشيوس لم يكتب من هذه الكتب إلا الكتاب الخامس، وهو عبارة عن حوليات تناول فيها كونفشيوس تاريخ ولاية "لو".

والظاهر أن عمل كونفشيوس بصدد الكتب الأربعة الأخرى المعروفة باسم "كنج" اقتصر على جمع شملها وإعادة كتابتها، وإن كان بعض العلماء ينكرون عليه ذلك.

أما الكتب الأربعة الصينية المعروفة باسم "شو" فيرجع تاريخها إلى

عهد متأخر عن عهود الكتب الخمسة الأولى، وقد قام بكتابتها تلاميذ كونفشيوس ومريدوه.

ويمكن أن نقول إن الكتب الخمسة المعروفة باسم "كنج" هي بمثابة كتب العهد القديم من سجل الكتب الصينية المقدسة، وأن الكتب الأربعة المعروفة باسم "شو" هي بمثابة كتب العهد الجديد، وهذه الكتب الأربعة عبارة عن ثبت للمحاورات التي دارت بين كونفشيوس ومعاصريه مع مجموعة من الحكم المختلفة والمذاهب الخاصة بموضوعات خلقية وسياسية. وهذه الكتب هي:

١- "تاهسيو" أي المعرفة الكبرى.

٢- "شونج يونج" أي مذهب الوسيلة الوسطى.

٣- "لون يو" أي المنتجات.

٤- "منج تسى" أي منشيوس.

والكتاب الأول عبارة عن منهج لتقويم الأخلاق وبحث في الفضيلة.. والثاني عبارة عن إرشادات في الاعتدال وعفة النفس والتوسط في الأمور. أما المنتخبات فهي: مجموعة من حكم كونفشيوس وأقواله المأثورة، وهي أكثر هذه الكتب ذيوعًا وانتشارًا وخاصة بين الأجانب.. أما الكتاب الرابع منشيوس فهو عبارة عن مجموع الشروح التي قام بها كبار الشراح لمصنفات كونفشيوس.

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الكتب التسعة قد ظلت قرونًا عدة لها أكبر الأثر في توجيه حياة أهل الصين، بل كان طالبو الالتحاق

بالوظائف الحكومية يؤدون اختبارًا دقيقًا فيما تتضمنه هذه الكتب، ولكن على الرغم من هذا كله فإن هذه الكتب لم تناقش مناقشة علمية دقيقة لمعرفة مدى صحتها وتنزهها عن الخطأ.

وإذا كان لا ينسب إلى كونفشيوس إلا كتاب واحد من هذه الكتب التسعة، فإن له الفضل مع ذلك في أنه قد أحاط بتلك المؤلفات الصينية القديمة الكثيرة العدد واستطاع أن يستخلص منها تلك الحكم والأقوال المأثورة التي وصلت إلينا، ولا ريب أن تلك مقدرة عظيمة قد لا تتوافر في شخص آخر غير كونفشيوس.

لقد أحاط كونفشيوس بكل معلومات عصره ثم صاغها صياغة جديدة مبسطة قريبة إلى أفهام الشعب ومداركه، بعد أن كانت هذه المعلومات والمعارف وقفًا على طائفة العلماء ورجال الدين بسبب التوائها وصعوبة اللغة التي كتبت بها.

وليس من شك أيضًا أن كونفشيوس قد أنفق كثيرًا من الوقت والجهد في الإحاطة بهذه المؤلفات القديمة وهضمها ثم تبسيطها لجمهور القراء.

وكان لكونفشيوس إلى جانب حكمه وأقواله المأثورة وتعاليمه- مشاركة أخرى قيمة في تهذيب النففس وتثقيفها؛ لأنه كان يدرك تمامًا أن قوة الدولة هي في ثقافة مواطنيها ، وأن لا شئ يهم الحكومة الصالحة أكثر من اهتمامها بتثقيف الشعب وتهذيبه.

وهو لهذا الغرض لم يهتم كثيرًا بالدين ولكنه أوصى بتعلم الشعر

ومعرفة الطقوس والشعائر المختلفة والموسيقى والنبالة.

كان يعتقد أن الشعر يدفع الفرد إلى تحقيق ما قد لا يبنى آمالًا عريضةً قد لا تتحقق في عالم الواقع.. أما مراعاة الطقوس والشعائر حتى ما كان منها متصلًا بالدين فتربي في النفس ملكة الانتباه الشديد إلى تفاصيل الأمور ودقائقها.

أما أهمية الموسيقى في تهذيب النفس فإنها تؤدي بالعقل إلى الأفكار السامية وكان من عادة كونفشيوس أن يعزف على الناي مدة من الزمن قبل أن يكتب أو يبدأ في إلقاء دروسه؛ لأن الموسيقى في نظره تساعده على تركيز عقله في العمل الذي يقوم به.

وقد تكون النبالة وجعلها بين العلوم الواجب أن يتثقف بها المرء ووضعها في مرتبة واحدة مع الشعر والموسيقى هي الأمر الذي يلفت النظر ويبعث على التساؤل.

وكان كونفشيوس يدرك تمامًا أن قوة الدولة هي في ثقافة مواطنيها وأن لا شئ يهم الحكومة الصالحة أكثر من اهتمامها بتثقيف الشعب وتهذيبه.

الكونفشيوسية بعد وفاة كونفشيوس

ظهر بعد وفاة كونفشيوس بنحو مائة عام حكيم صيني آخر شهير يدعى منشيوس وهو يعد أكبر وأعظم أتباع كونفشيوس قاطبة. وقد عاش هذا الحكيم من عام ٣٧٢ إلى عام ٢٨٩ قبل الميلاد، حمل فيها رسالة كونفشيوس وعمل على نشرها بين الناس أجمعين.. وكان من المبادئ التي

أكدها هذا الحكيم أن الإنسان طيب بطبيعته وأن البيئة التي يعيش فيها هي التي قد تجنح به إلى الشر؛ فيجب والحالة هذه العناية بالبيئة وإصلاحها. ولعل منشيوس قد تكهن في ذلك العهد البعيد بهذا المذهب الاجتماعي المعروف وذلك عندما قال إنه من المحال أن يرجى الخير والفلاح من شعب جائع مسكين؛ لأن الشعب الجائع لا يمكنه أن ينصرف إلى التعلم والتثقيف وبطنه خاوٍ . بل علينا أولًا أن نشبع جوعه وهو بعد ذلك ينصرف من تلقاء نفسه إلى طلب العلم والمعرفة.

وهذا هو الرأي السائد الآن بين علماء الاجتماع وهو الرأي الذي تعمل الحكومات على تطبيقه.

وقد ظهر من بعده حكيم صيني آخر يدعى شوشيوس من أهل القرن الثاني عشر للميلاد، أخذ بدوره يفسر ويشرح هذه الكتب الصينية القديمة التي عكف على دراستها كونفشيوس.. وقد انصبت جهوده بصفة خاصة على محاولة إيجاد حل لمشكلة الشر.. وكان لكتابات هذا الحكيم وتوجيهاته أثر كبير في المذهب الكونفشيوسي حتى ذهب البعض إلى أن الأجدر أن يسمى باسم المذهب الشوشيوسى نسبة إليه.

وتعاقبت على مذهب كونفشيوس أحداث خطيرة كانت أحيانًا تنخفض من أنفاسه حتى يكاد يختنق وأحيانًا ترفعه إلى المكانة الأولى. فقد ظهر في الصين ما بين عامى ٢٤٥ و ٢٠٩ قبل الميلاد طاغية جبار ألقى الرعب في قلوب الناس أجمعين، وعند هذ الطاغية ويدعى "شى هوانج تى" إلى القضاء على جميع الأمراء ورجال الإقطاع، ثم قام بعد ذلك بتوحيد

الصين في دولة واحدة تحت زعامته.. وقد استعمل العنف والقسوة للوصول إلى هذا الغرض الذي كان يهدف إليه كونفشيوس في واقع الأمر.

وقد رأى "شى هوانج تى" أن المنازعات والمناقشات بين المدارس المختلفة التي كانت قائمة في الصين في ذلك الوقت هي السبب في ذلك الانقسام والتفكك والقلق السائد في جميع أرجاء البلاد؛ لذلك أصدر في عام ٢١٣ ق.م أمرًا بإحراق جميع الكتب الصينية مع استثناء ما كان منها في حوزة أسرة تسين.. وقد رفض أربعمائة وستون أستاذًا من أساتذة هذه المدارس تسليم ما لديهم من الكتب فكان نصيبهم الموت حرقًا.. ثم كان التحريق بعد ذلك جزاء من يقبض عليه وفي حوزته بعض هذه الكتب المحرم تداولها، كما كان يحكم عليه بالأشغال الشاقة في بناء سور الصين العظيم.

وقد اعترت شى هوانج تى هذا رغبة جامحة في إقامة المباني والعمائر فكان أن شيد الكثير من المنشآت الصينية المشهورة ومن بينها حصن أوفانج– كنج.. وكانت ساحة هذا الحصن الرئيسية تتسع لعشرة آلاف نفس.. ويقال إن هذا الطاغية كان يخشى على حياته من اعتداء المعتدين؛ لذلك عمد إلى مغنطة باب هذا الحصن بحيث إذا عبره شخص مسلح انجذب إلى الباب بشدة وافتضح أمره، غير أن هذا الحذر لم يحل دون قتله.. وبعد أن زال هذا الطاغية من الوجود اعتلى عرش الصين أباطرة من أسرة هان.. وفي عهدهم انتعشت الصين وازدهرت، إذ أخذ هؤلاء الأباطرة يناصرون كل ما من شأنه توطيد الأمن والسلام في البلاد وإحياء تقاليدها

وشعائرها القديمة.. وكان في طليعة الهيئات التي نالت تأييد هؤلاء الأباطرة وتشجيعهم المدرسة التي أنشأها كونفشيوس في مقاطعة لو.. ازدهر مذهب كونفشيوس في عهد هذه الأسرة الحاكمة، ففي عام ١٩٤ قبل الميلاد زار أول إمبراطور من هذه الأسرة قبر كونفشيوس في "شوفو" وفي عام ٧٢ للميلاد كرمت هذه الأسرة اثنين وسبعين من كبار أتباع كونفشيوس ومريديه.

وفي عام ٢٦٧ صدر مرسوم بوجوب تقديم القرابين العظيمة لكونفشيوس أربع مرات في كل عام.. وقام أهل بلدة كونفشيوس ببناء معبد تمجيدًا لذكراه. وفي عام ٥٥٥ صدر مرسوم يقضي بإقامة معبد لكونفشيوس في المدن الكبرى من كل ولاية من الولايات.

وفي عام ٦٦٥ خلع على كونفشيوس لقب "أنبل الأساتذة" ثم لقب "ملك" في عام ٧٣٩، ثم خلع عليه عام ١٠١٣ لقب "أقدس القديسين".

وكان أباطرة بيت مانشو ينحون أمام تمثاله إجلالًا واحترامًا.. وقد أطلقوا عليه عام ١٦٥٧ اسم "أحكم الأساتذة الأقدمين".. وأصبح مذهبه ذخرًا يعتز به الشعب الصيني بأكمله، كما أصبح كونفشيوس في نظرهم راعيًا لطبقة رجال الأدب ورجال الدولة.

شخصية كونفشيوس وسجاياه

لقد كان لهذا الرجل المحافظ اليائس من الأثر في حياة أهل الصين ما لم يكن يتوقعه في حياته.. إن الظروف لم تمكن هذا الحكيم من تشييد البناء الذي وضع بيديه أركانه الرئيسية.. ولو قدر له أن يستعرض الأحداث التي

مرت به في حياته لقال يقينًا "لو كانت الأشياء جميعًا تحتاج إلى زمن حتى تطيب وتنضج فما أطول الزمن اللازم لتكوين أمة عظيمة".

لقد قد هذا الرجل من صلب ستديانة صينية صلبة، وكان همه الوحيد تنظيم الشئون الإنسانية وشئون الأسرة والدولة، ويؤثر عنه أنه لام أحد تلاميذه يومًا؛ لأنه رآه يشغل باله بالتفكير في الموت قائلًا له: "إذا كنت لا تعرف الحياة فماذا تعرف عن الموت؟".

لقد كان يبدو هذا الرجل في صورة تبعث على الاحترام والتبجيل.. فهو ذو شخصية لطيفة اختار لنفسه مهنة المهذب والناصح للملوك والأمراك.

وكان كونفشيوس في بلاط الملوك مثالًا كاملًا لما يجب أن يكون عليه رجل البلاط من حيث مراعاة قواعد "البروتوكول" إلى أقصى حدود المراعاة، والعناية بهندامه وزينته عناية تتفق ومن يكون في حضرة الملوك الصيد والأمراء.

لقد كان كونفشيوس يدرك تمامًا أن السماء قد وهبت عددًا من الناس المقدرة على تدبير أمور الحكم، فواجب والحال هذه على هؤلاء النفر من الناس أن يضعوا كفاياتهم في هذه الناحية تحت تصرف حكامهم.

وكان كونفشيوس في علاقته مع الناس في حياته اليومية متواضعًا متحفظًا وكان مع ذلك يثق في نفسه تمام الثقة ويعتقد في رسالته تمام الاعتقاد حتى في أيام محنته وبؤسه.. ويؤثر عنه أنه قال في إحدى المناسبات

التي تعرضت فيها حياته للخطر: "إن السماء قد حبتنى بحكمة "ون وانج" القديمة ومن ثم لا يستطيع بشر أن يمسنى بسوء".. وقال في مناسبة أخرى:

"إذا انتشر رأى من الآراء فذلك لأن السماء أرادت ذلك" ويقصد كونفشيوس من كلمة السماء ما نقصده نحن اليوم من كلمة العناية الإلهية، ولذلك كان كونفشيوس يتوقع لمذهبه الذيوع والانتشار؛ لأنه كان يرى في نفسه أنه مبعوث العناية الإلهية.

وكثيرًا ما يقال إن كونفشيوس لم يأت بشئ جديد، ولكن الواقع أنه صنع الكثير في سبيل تعليم أهل الصين وتهذيبهم.. فهو قد تناول الكتب الصينية القديمة المقدسة بالتنقيح والتهذيب وبث فيها روحًا جديدًا حتى غدت شيئًا له طلاوة الشئ الجديد فأقبل الناس على قرءتها والانتفاع بما جاء فيها.

وكان كونفشيوس في الوقت ذاته رجلاً عمليًا لا يهتم إلا بالواقع وكان دائم السعي إلى إحياء كل مأثور من العادات والتقاليد الصينية القديمة.. وكان كونفشيوس يحترم الملوك والأمراء ولكنه كان في الوقت ذاته لا يحجم عن انتقاد فعالهم وتصرفاتهم.

وكانت أفعال الناس وطرق معيشتهم محل عنايته واهتمامه، وهو لم يكن يهتم في قليل أو كثير بالأشخاص الذين تجرى أعمالهم على غير النسق المألوف، كما كان لا يهتم بالظواهر الخارقة للعادة.. ونذكر بهذه المناسبة أيضًا أنه كان ينظر بازدراء إلى الشئون العسكرية ويرى أنها في المرتبة الثانية.

لقد أحس كونفشيوس بالفوضى والفساد يدبان في أوصال الأمة الصينية، فأراد أن يفعل شيئًا يعيد به السلام والاستقرار إلى البلاد؛ لذلك كرَّس جهوده هو وتلاميذه للوصول إلى هذه الغاية المنشودة.. كان كونفشيوس يعيش العيشة العملية التي ينادى بها؛ لذلك كانت كل كلمة يتفوه بها يحيلها إلى عمل من الأعمال.. وكان في الوقت نفسه يحب أن يكون عمل المرء منسجمًا مع الوسط الذي يعيش فيه.

هذا الحكيم الإنساني المتزن المتفاني في أداء واجبه كان مرحًا في حياته المنزلية.. لقد كان يحب الموسيقى ويطرب للشعر الصيني القديم.. وكان يعيش مع تلاميذه ومريديه في جو عائلي كبير، فإذا ما اخترمت المنية واحدًا منهم بكاه بكاءً مرًا وكأنه فقد أعز أبنائه إليه.. ولعل أجمل ما نختم به هذه الفصل أن نذكر (في الصفحات التالية) بعض أقوال كونفشيوس وحكمه مستقاة من أهم كتبه:

الرجل المتفوق

أليس من المبهج أن يداوم الإنسان على طلب العلم ويثابر على ذلك؟ أليس من المفرح أن يكون للإنسان أصدقاء يفدون عليه من جهات نائية؟ إذا لم يكن المعلم رزينًا متزنًا لا يحترمه أحد فلا تكون دروسه راسخةً وطيدةً.

اجعل الأمانة والاخلاص مبادئك الأولى.

لا تتخذ أصدقاء غير أكفاء لك.

إذا كانت لك أخطاء فلا تخش التخلي عنها.

إن الرجل المتفوق هو الذي يعمل قبل أن يتكلم ثم يتكلم بعد ذلك وفقًا لأفعاله.

الرجل المتفوق حر التفكير وليس متعصبًا، أما الرجل الوضيع فمتعصب غير حر الفكر.

إن التعلم دون إعمال فكر مجهود ضائع، والتفكير دون تعلم أمر خطير.

قد يكون هناك أناس يعملون دون معرفة السبب الذي من أجله يعملون، إني لا أحب أن أفعل ذلك.. استمع كثيرًا وانتق ما هو حسن ثم اتبعه، وانظر كثيرًا واخترن ما تراه في مخيلتك، ذلك هو الأسلوب الثاني في طلب العلم والمعرفة.

هل الفضيلة شئ بعيد المنال.. إني أرغب أن أكون فاضلًا، وها هي ذي الفضيلة في متناول اليد.

الرجل الكامل الفضيلة من طبعه الحذر والتمهل في حديثه؛ لأنه إذا شعر بصعوبة العمل فهل أمامه من شئ آخر غير التمهل في القول؟

إن الرجل المتفوق لا يعرف القلق أو الخوف لأنه منزه عن الخطأ، ومن ثم فليس من شئ يقلق له ولا من شئ يخاف منه ويخشاه.

من السهل القيام بخدمة الرجل المتفوق ولكن من الصعب إرضاؤه؛ لأنك إذا حاولت إرضاءه بأية وسيلة لا تتمشى والحق فهو لا يرضى، ولكنه عندما يستخدم الناس إنما يستخدمهم وفقًا لكفاياتهم الخاصة.

ومن الصعب خدمة الرجل الوضيع ولكن من السهولة إرضاؤه؛ لأن إذا حاولت إرضاءه وإن كان ذلك بوسيلة لا تتمشى مع الحق فإنه يرضى.. ولكنه عندما يستخدم الناس فهو يرغب منهم أن يكونوا على حد سواء بالنسبة لكل شئ.

الحكيم يجد بهجته في المياه، والفاضل يجدها في التلال والمرتفعات، والحكيم نشيط بطبعه والفاضل هادئ رزين.

الدولة والحكومة

إن الرجل الذي يمارس الحكم مستعينًا بفضله وعدله يمكن مقارنته بالنجم القطبي يحتفظ بمكانه بينما تدور حوله بقية النجوم الأخرى.

إن خطة السماء في تدبير شئون الإنسانية تجرى على الوجه التالي:

إن الذين أوتوا العلم قبل غيرهم عليهم تعليم هؤلاء الذين يتأخرون عنهم في تحصيل العلم. وإن هؤلاء الذين يدركون قبل غيرهم المبادئ والأسس عليهم تعليم هؤلاء الأبطأ منهم فهما لهذه المبادئ والأسس.. وإني واحد من أبناء السماء الذين فهموا هذه المبادئ قبل غيرهم، فعلى إذًا تلقينها الناس، فإذا لم أفعل هذا فمن ذا الذي يقوم بذلك؟

سأل تسى– تشانج الحكم كونفشيوس قائلًا: "بأية طريقة يستطيع الرجل الذي يلى الحكم أن يتصرف كي يسوس الحكومة كما يجب؟" فأجابه كونفشيوس: "عليه تمجيد عظائم الأمور الخمسة وأن يبتعد عن قبائح الأمور الأربعة وبذلك يسوس الحكومة كما يجب". فسأله تسى–

تشانج: وما هي عظائم الأمور الخمسة"؟ فأجابه "عندما يكون الحاكم جوادًا من غير إسراف، وعندما يكل الأعمال إلى الشعب دون أن يتذمر، وعندما يجد في طلب ما يرغب فيه دون أن يكون جشعًا، وعندما يؤيد قضية جليلة دون أن يعتريه الكبرياء، وعندما يكون مهيبًا دون أن يكون عنيفًا شرسًا".

ثم قال له سى- تشانج: "وما هو المقصود من قبائح الأمور الأربعة"؟ فإجابة كونفشيوس:- "أن تقتل الناس دون أن تكون قد علمتهم فهذا يسمى قسوة، وأن تطلب منهم أقصى نتاج عمل من الأعمال دون أن تنذرهم بذلك فهذا يسمى عسفًا وجورًا، وأن تصدر أوامر ليست لها صفة العجلة فإذا ما أزف الوقت تصر عليها بقسوة فهذا يسمى إساءة ومضرة، وأخيرًا إذا كافأتهم أو دفعت أجور عملهم بالشح والتقتير فهذا عمل الموظف العادي دون الحاكم".

قال كونفششوس: "من المحال على المرء أن يكون متفوقًا دون التسليم بشرائع السماء".

"ومن المحال أن تتوطد الأخلاق دون مراعاة قواعد الحشمة والأدب".

"يسعى الرجل المتفوق إلى تكميل الصفات الحميدة في الناس ولا يسعى إلى تكميل صفاتهم القبيحة، أما الرجل الوضيع فيصنع العكس".

"إذا حكمت فمعنى ذلك أنك تصلح وتقوم، فإذا سألت الناس بالعدل والاستقامة فمن ذا الذي يجسر على ألا يكون مستقيمًا؟

الفهرس